

الفصل الثاني

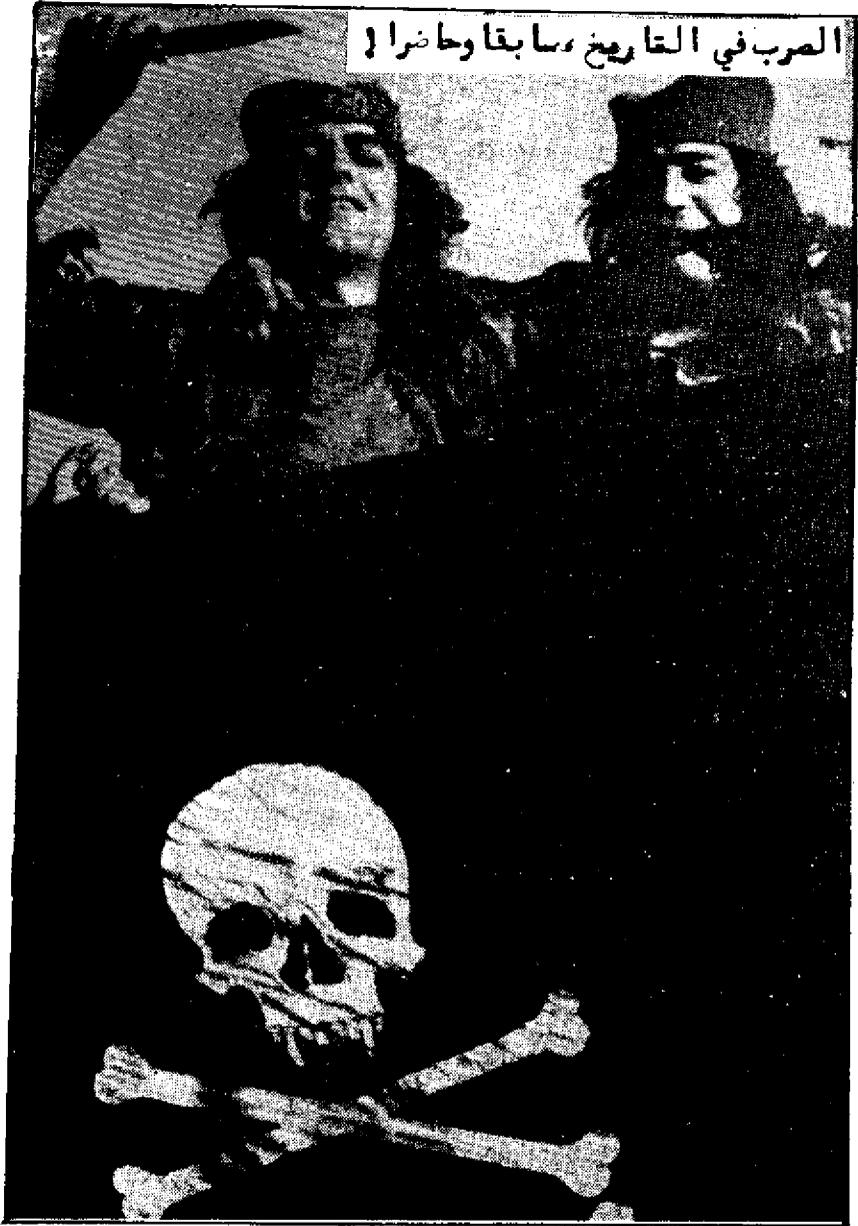


سلطان القانوني



- الصرب والكروات
- القضية القومية والأقليات في يوغسلافيا السابقة
- العلاقات الدولية وحروب البلقان حتى الحرب العالمية الأولى

المرتب في التاريخ سابقا وحاضرا



الصرب^(١) والكروات^(٢)

استوطن الصرب والكروات البلاد المعروفة اليوم بـ «يوغسلافيا» وتحركت الكنيسة الغربية ودعت ارسالياتها.. لتحويل الأهالي الى النصرانية فتقدمت وانتشرت المسيحية صوب «الماسيا» على الشاطئ الأدرياتيكي وكرواتيا وتدعمت بأفواج من النبلاء الوافدين من امبراطورية الفرنجة.

.. فالصرب استوطنوا المناطق الأكثر عمقا في الجنوب والشرق عند قدومهم في القرن السابع الميلادي.. وأصبحوا سكان المنطقة المعروفة اليوم باسم «صربيا».. وفي منتصف القرن التاسع الميلادي ظهر «فلاسنمير» الذي وحد القبائل الصربية أمام الخطر البلغاري المحتمل، وتطلع الى الدعم البيزنطي الذي ساهم في جر صربيا الى الحضارة البيزنطية.. ويبدو أن التأثير البيزنطي اقتصر على الدعوة الى النصرانية غير أن انتشار النصرانية كان تلقائيا بين صفوف الكروات.. وفي داخل الأراضي الصربية، ولكنهم اتبعوا المذهب الكاثوليكي بينما اتبع الصرب المذهب الأرثوذكسي.

-
- (١) - الصرب: شعب استوطن «صربيا» وعاصمتها «بلغراد» يتبعون الكنيسة الشرقية وهم على خلاف وصراع دائم مع الكروات الكاثوليك - جيرانهم - وكان للصرب مملكة قديمة في اوروبا الوسطى على الضفة اليمنى لنهر الدانوب باسم «صربيا»..
- (٢) - الكروات: شعب يتبع القومية الكرواتية، يتجمع الآن في جمهورية «كرواتيا» وعاصمتها «زغرب» وهم من المسيحيين الكاثوليك ويتبعون كنيسة روما

..مرت صربيا بمرحلة صعبة، حيث عمت البلاد الفتن الداخلية والاشتباكات الدموية المسلحة مع السلطة التي استطاعت آخر الامران تحسم هذه المشكلات، وتربع الطاغية «ستيفان الثاني»^(٣)، على عرش صربيا عام ٧٣٢هـ = ١٣٣١ م، وشغل بيزنطة باشعال نار الحرب الأهلية، وتمكن بالدهاء والقوة ابتلاع «مقدونية» ومعظم «ألبانيا». وفي عام ٧٤٧هـ = ١٣٤٦ م، توج ملكا من قبل الكنيسة الصربية الجديدة.^(٤)

ومات دوشان مخلفا امبراطورية شملت اليونان والبلغار والألبان فضلا عن الصرب فضاغف أراضي صربيا، وسيطر على نصف بحر ايجه وكان لا يزال نصب عينيه هدفا غير محقق بعد، ألا وهو حكم القسطنطينية الذي كان يحضر له

ومضت السنون وتحولت صربيا المتحدة القوية .. الى اتحاد وممالك وامارات بيزنطية، ولم يكن المسيطر هذه المرة سوى الدولة العثمانية الفتية. وبقيت الآمال متعلقة بمملكة البوسنة الصربية بوصفها الرائدة المحتملة للبلقان.. وأخيراً أصبحت مقدونيا بأيدي العثمانيين عام «٧٧٢ هـ = ١٣٧١ م»، ثم جاءت نهاية دول البلقان النصرانية، عندما اكتسح السلطان «مراد الثاني» عام «٧٩١هـ = ١٣٨٩ م»، القوى الصليبية التي قادها الأمير الصربي «لازار» في معركة قوصوه «كوسوفا»، وتقبل القادة البلقانيون الحكم العثماني الواحد تلو الآخر، واستولى العثمانيون على أقوى وأمنع الحصون في صربيا والبوسنة عام «٨٦٧هـ = ١٤٦٣ م».^(٥)

(٣) - ستيفان الثاني: هو ستيفان دوشان بن استيفان أروش.. كان في عهد والده ولياً للعهد، ثم خلف والده بعد أن شنقه، وحكم البلاد الصربية بقبضة من حديد لمدة جيل كامل. كان بشع المنظر، عملاقاً سيطر على البوسنة وألبانيا ومقدونيا.. وغيرها.

(٤) - انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٣ - ٢٦).

بقيت بلاد الصرب مركزاً للصراع وبؤرة متفجرة بسبب التحريض الخارجي الذي كانت تعصف رياحه، من النمسا أحياناً ومن روسيا في أحيان أخرى، واستطاعت هذه القوى الخارجية أن تجد لها باستمرار من يستجيب لتحريضها في داخل بلاد الصرب فقد ظهر منذ البداية أمير صربي استقل بإقليم «الجبل الأسود» وضم إليه قسماً من بلاد الصرب وجعل عاصمته مدينة «اشقودرة»، غير أن القوات العثمانية تمكنت من طرده، فاعتصم بمنطقة الجبل الأسود، وتحصن بها وتمكن من صد القوات العثمانية مستفيداً من وعورة المسالك وصعوبة المفاوضات حتى إذا ما كانت سنة «٩٠٥ هـ = ١٤٩٩ م» انتقلت حكومة الجبل الأسود إلى أيدي رئيس الأساقفة، وانحصرت السلطة الدينية والملكية في قبضته....

وابتدأت العلاقات بينه وبين روسيا بتأثير عامل الدين والمذهب، ولم تلبث هذه العلاقات في عهد «بطرس الأكبر» - قيصر روسيا - أن تحولت إلى نوع من التبعية وصار الصربيون يلجؤون إلى قيصر روسيا إذا ما نزل بهم ظلم أو وقع عليهم اعتداء من قبل حاكمهم.. ولما تعين الأمير «دانيال»^(٥) حاكماً على الجبل الأسود، عمل على فصل السلطة الدينية عن السلطة الملكية.. وكان دانيال - هذا - بحكم نشأته في فيينا - يميل إلى النمسا، فلجأ إليها لتدعمه على حفظ استقلاله. وكان ذلك مناقضاً للاتفاقيات المعقودة مع الدولة العثمانية التي ردت بأرسال جيشها بقيادة «عمر باشا» لمحاربة دانيال سنة «١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م»، وكادت القوات العثمانية أن تنهي احتلال الإقليم عندما تدخلت روسيا والنمسا فأرغمتا الدولة العثمانية على إيقاف الأعمال القتالية^(٦)

(٥) انظر: العثمانيون والبلغان (ص ٢٦ - ٢٨).

(٦) دانيال (دانيلو): (١٢٤٤ - ١٢٧٧ هـ - ١٨٢٨ - ١٨٦٠ م).

(٧) - انظر فن الحرب الاسلامي - العثماني - (٥/ ٢٣٧ - ٢٣٨).

معاهدة باريس

بعد انتهاء حرب القرم^(٨)، أخذت الدول الأوروبية في إيجاد الأسباب التي تُضعف الدولة العثمانية حتى لا تقوى على معارضة هذه الدول وتبقى كحاجز بين روسيا والبحر الأبيض المتوسط. ليس إلا... ثم أوجدت هذه الدول مشاكل كثيرة في بلاد الصرب والجبل الأسود، كما بنوا بذور الفساد في بلاد البوسنة والهرسك فاضطربت هذه الولايات كلها وقامت تطالب بامتيازات كثيرة، وكان مسعى الدول الأوروبية من وراء هذه الاضطرابات، لتبقى هذه الولايات كموانع وعقبات بين الدولة العثمانية وممالك أوروبا.

وكان تدخل الدول الأوروبية في الشؤون العثمانية الداخلية يزيد الأمور تعقيداً. ومثال هذا، التدخل، منع الدولة بقمع الثورات في ولاياتها، وتهديدها بقطع العلاقات الدبلوماسية، بل أن فرنسا وروسيا أرسلتا السفن عام

(٨) - حرب القرم: «١٢٧١ - ١٢٧٣ هـ = ١٨٥٤ - ١٨٥٦ م» نشبت بين روسيا من جهة، والدولة العثمانية وانكلترا وفرنسا وبيامونته من جهة أخرى، سببها التنافس على السيطرة في الشرق وحماية الأماكن المقدسة، أدت إلى سقوط قلعة سياستبول وهزيمة الروس ومعاهدة باريس سنة «١٨٥٦ م» (المنجد في الأعلام ط ١٦، ص ٢١٦).

والقرم شبه جزيرة شمالي البحر الأسود تتبع الآن جمهورية أوكرانيا، تفصل بين بحرين: الأسود وازوف.. عاصمتها «سيمفربول» - الآن - وكان اسمها «آق مسجد» أي المسجد الأبيض وغير الروس اسمها - وأهل القرم أترك مسلمون.. والقرم معناها «القلعة» كان سكانها خمسة ملايين نسمة عام ١٩٥٧ م وكان في القرم «١٥٥٨ م» مسجداً لم يبق منها إلا أحاداً، وكثرتها قد أزيلت أو تحولت إلى دور لهو وأصطبلات للخيل وحظائر للماشية بعد الثورة البلشفية ولم يبق من سكانها سنة ١٩٤٠ م سوى (٤٠٠,٠٠٠) نسمة أما البقية من سكانها وُزعت وشُردت على مختلف بلدان الاتحاد السوفيتي - سابقاً. لزيادة المعرفة انظر: الاسلام في وجه الزحف الأحمر/ محمد الغزالي، المكتبة العصرية بيروت وصيدا، ١٩٦٦ م (ص ١٣٩ - ١٤٢)

«١٢٧٥هـ = ١٨٥٨م» الى سواحل الجبل الأسود لمنع الجيش العثماني من دخول هذه الامارة لمعاقبة أميرها على مساعدته ثوار البوسنة والهرسك...

كانت الدولة العثمانية في وضع حرج لعدم وجود صديق لها بين جميع الدول المسيحية المتألمة عليها، حتى صار سفراء الدول الأوربية لدى السلطان في استانبول، شركاء لوزراء الدولة في تصريف أمور البلاد العثمانية.

أما المعاهدة التي أعقبت حرب القرم فهي «معاهدة باريس» التي جاء في بعض موادها مايلي:

المادة ١١: البحر الأسود يكون على الحياد... ومباحا لتجارة جميع الأمم..

المادة ٢٢: ولايتا الأفلاق والبغدان تبقيان تحت رئاسة الباب العالي..

المادة ٢٣: الباب العالي يتعهد بتأمين لهاتين الولايتين ادارة محلية مستقلة، لها حرية الدين والأحكام..

المادة ٢٦: يكون للولايتين المذكورتين قوات أمن داخلي من أهلها.

المادة ٢٨: إقليم الصرب يبقى مرتبطا بالدولة العثمانية ويقيم حكومة وطنية لتحافظ على استقلاله، وله حريته الدينية والأحكام الشرعية وحرية التجارة والسفر.

المادة ٣٤: قد قرّر الرأي على اثبات هذه المعاهدة وتجري مبادلتها في باريس في مدة أربعة أسابيع أو قبل ذلك اذا أمكن..^(٩)

حرر في باريس في ٣٠ شهر مارس «أذار» ١٨٥٦م « ٢٢ رجب ١٢٧٢هـ^(١٠)».

(٩) الزعماء الذين وقعوا معاهدة باريس هم: امبراطور فرنسا، ملك المملكة المتحدة، امبراطور جميع الروسيا، ملك سردينيا، وسلطان الدولة العثمانية.

مؤتمر الأستانة وتعديل معاهدة باريس

انعقد في الأستانة «استانبول» مؤتمر ضمّ مندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس، وجرّت مناقشات طويلة، تقدم خلالها مندوب فرنسا باقتراح لجلاء القوات العثمانية عن قلعة بلغراد. غير أن بقية المندوبين لم يؤيدوا اقتراحه، وفي النهاية، تقرر بالأغلبية جلاء القوات العثمانية عن قلعتين فقط وبقائها في أربع قلاع هي: بلغراد، فتح اسلام، شباتس، سلمندرية^(١٠). وأن يلتزم المسلمون القاطنون خارج القلاع الأربع المذكورة، بيع ممتلكاتهم، والنزوح عن البلاد، أو الإقامة ضمن حدود الحصون الأربعة وعلى حكومة الصرب أن تدفع لهم تعويضات عن ذلك، وتمّ التوقيع على هذا الاتفاق في «١١ ربيع الأول ١٢٧٩هـ و٦ أيلول ١٨٦٢م^(١١)». ومن المناطق التي وقع عليها أمر النزوح، مدينة «أوجيتسة» użicu

مدينة «أوجيتسة» użicu: في العهد العثماني

فتحت مدينة «أوجيتسة» أثناء (الفتح العثماني) للبوستة بقيادة السلطان الفاتح سنة ١٤٦٣ م (٨٦٧هـ)، في ذلك الوقت كانت أوجيتسة بلدة صغيرة

(١٠) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية/ محمد فريد، ط ١ مصر ١٨٨٣ م (ص ٣٢٠ - ٣٣٠).

(١١) فتح اسلام: مدينة تعرف اليوم باسم «تورنو سيفرين» على نهر الدانوب، شرقي بلغراد

شباتس: SABAC تقع على نهر «سافا» الى الجنوب الغربي من بلغراد
سلمندرية = سلمندرية: (لم أعر على هذه المدينة في مصور يوغسلافيا بهذا الاسم وأما الذي ذكر على المصور - وحسب ما أشير إلى بعده عن بلغراد ب «٤٥ كم» فهو لمدينة سميدرفو، SMEDEREVO وهي - على الأرجح - تطابق الوصف، حيث أشير إلى جانبها صورة قلعة)

(١٢) انظر: فن الحرب الاسلامي في العهد العثماني (م ٥ ص ٣٤٠ - ٣٤١).

في «صربيا الغربية». وقد انتشر الاسلام في هذه المنطقة خلال القرن الخامس والسادس والسابع عشر، ويمكن متابعة هذه الظاهرة من خلال الوثائق للأراضي العثمانية المسجلة.

سجلت أربع عائلات مسلمة في قرية أوجيتسة سنة ١٤٧٦ م (٨٨١هـ)، وبعد مائة سنة ازداد عدد هذه العائلات الى (٥٦٨) عائلة .. وقد أصبح هذا العدد ثابتا على حسب احصائية سنة ١٧٧٦ م (١١٩٠هـ)، حيث أصبحت «أوجيتسة» ثاني بلد من حيث كثرة عدد السكان في «صربيا» وكان أكثر سكانها من المسلمين السلافيين الجنوبيين جنسا وأصلا. وكان عدد الجوامع في ذلك الوقت (١٦ جامعا)، كما كان فيها عدد كبير من المساجد والتكايا. ويذكر تاريخ الأدب عددا كبيرا من العلماء والشعراء في هذا البلد، لهم مؤلفات وشروح، ودواوين شعر، ومنقولات.^(١٣)

تهجير المسلمين من «أوجيتسة» إلى البوسنة،

سنة ١٨٦٢ م (١٢٧٨ - ١٢٧٩ هـ):

أصبحت «صربيا» في منتصف القرن التاسع عشر (أمانة) تتمتع بحكم ذاتي تحت السلطنة العثمانية المركزية، وكانت «أوجيتسة» ثاني مدينة في صربيا من حيث عدد المسلمين وفي عام ١٨٦٢ م (١٢٧٨ - ١٢٧٩ هـ)، حدث في (كشوكور - تشيهي في بلغراد) حادثة أدت الى مواجهة بين الجيش العثماني والشرطة من ناحية، وبين السكان الصرب وقوات الأمن من ناحية أخرى. وبسبب هذه الحادثة وغيرها من الحوادث عقد اجتماع بين الدول الأوروبية وبين السلطنة العثمانية في موقع «كانيلجة» - قرب استانبول. واسفر الاجتماع عن قرار تهجير كافة السكان المسلمين المدنيين من صربيا. وبناء

(١٣) البلاغ (غلاسنيك) (ص ٥٢)، العدد (١) كانون الثاني وشباط ١٩٩١ (تصدر في سراجيفو عن رئاسة الطاقة الاسلامية)

على وثائق السلطات العثمانية لسنة ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ) هاجر من «أوجيتسة» الى بوسنة (٢٩٦٦) شخصا، ولم يعوّض المهجّرون عن عقاراتهم تعويضا مناسباً^(١٤).

معاهدة باريس ومؤتمر الاستانة في قفص الاتهام

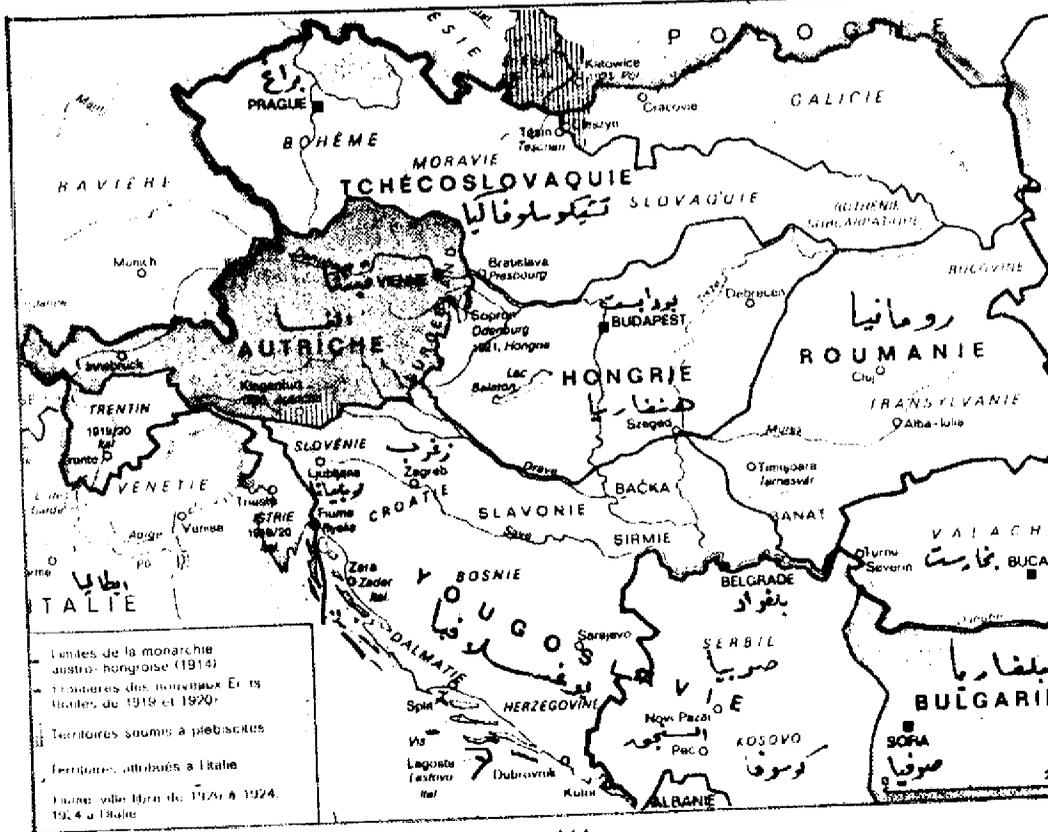
(من يطّلع على التاريخ العثماني في القرن التاسع عشر وبخاصة في النصف الثاني من القرن المذكور، يرى أن معاهدات كثيرة ومؤتمرات متعددة تنادى الغرب لابرامها مع الدولة العلية، وإذا بحثنا عن الأسباب البعيدة والقريبة، المباشرة وغير المباشرة، نرى أن سياسة الغرب يلفون ويدورون لخلق الأسباب الموجبة لتقييد الدولة التي أخذت على عاتقها حماية الاسلام والمسلمين، بوضع العراقيل في كل مكان استطاع الغرب أن يدسّ فيه ويثير المتاعب أمام الدولة الاسلامية، وإذا أمعنا النظر في مواد معاهدة باريس المبرمة في عام «١٨٤٦ م» نجد أن جميع موادها تضع الدولة العلية في مواقع الظالم، وأن ولاياتها وشعوبها في موقع المظلومين، وأن الدول الكبرى جاءت لتقيم العدل وتنصف المظلوم)!

(إن الحقيقة الجلية في كل معاهدة ومؤتمر، تبين التآمر الصريح ضد الدولة العثمانية، لالشيء إلا لأنها رفعت راية الاسلام في بقاع جمّة من أوروبا، مما أقلق زعمائها وأرعبهم ضياع مكتسبات الكنيسة والملوك والأمراء. ومع أن الدولة - دولة الخلافة - قبلت معاهدة باريس، إلا أن الغرب مازال يحيك الدسائس والمؤامرات ويشعل نار الحقد بين الحاكم والمحكوم ويخلق سبباً جديداً لتعديل المعاهدة ليزيد من انحسار الدولة الاسلامية،

(١٤) المصدر السابق العدد (٢)، آذار ونيسان ١٩٩١ (ص ١٧٩)، وتوجد لوائح بأسماء عدد من المهجّرين (٦٨٣ شخصا) و(١٣) جامعا ومدرسة (دون تعويض)، (ص ١٧٠ - ١٧٨)

فتنادت دول أوروبا الكبرى لتعديل معاهدة باريس ولعقد مؤتمر الاستانة ولما يمض أكثر من ست سنوات على إبرامها، وكان للغرب ما أراد وضيق الخناق على العثمانيين وإجلائهم عن كثير من الحصون والقلاع وأبقوها في أربع منها فقط، ووقع المسلمون في المحذور حيث قيدت تحركاتهم وأجبروا على بيع ممتلكاتهم وبالتالي اضطرارهم للنزوح عن البلاد الصربية، فكان مؤتمر الاستانة لتعديل معاهدة باريس وشد أزر الصرب ضد حكومة استنابول فقط، أي لاذلال العثمانيين وإيقاف المد الاسلامي في أوروبا.

كان مسلسل المعاهدات التي سبقت معاهدة باريس أو أبرمت بعدها، ماهو إلا لتحقيق ما يصبوا إليه العالم النصراني من كسر شوكة الدولة الاسلامية ومحاصرة أهلها المسلمين، وذلك ثارا لهزائمه السابقة، ومحاولة أخفات صوت الحق).





معركة بين سفينتين من الأسطول الإسلامي والأسطول المسيحي.

أمارة صربيا و (نورة قره جورج) .

..لعب الجبل الأسود دوراً ضعيفاً في تاريخ الحركة القومية في البلقان. ولكن كان دور صربيا مغايراً بعد أن اعترَف بها كمملكة وراثية في عام «١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م».

تمثل صربيا في خلاف الدول والقوميات في البلقان رهاناً صعباً وعقبة كأداء معاً، كما أن دروها كان رئيسياً.

وإذا استعرضنا مراحل تكون هذه الأمارة والتي أصبحت مملكة - كما ذكرنا - لعرفنا أن نشوء هذه الأمارة كان من ثورة في بداية القرن التاسع عشر في «١٨٠٤ م - ١٨١٢ م» (١٢١٩ - ١٢٢٧ هـ)، واعتبرت هذه الثورة الانفصالية الأولى بقيادة «قره جورج»، وبهذه الثورة يكون الصرب حملوا لواء أول عصيان مسلح ضد العثمانيين في البلقان، لعاملين أساسيين هما: الروح القومية الجامحة للاستقلال والاستعادة مجد غابر، والشعور بالظلم من قبل ولاة وجنود الدولة العثمانية»، ومما عجل في انفجار الثورة، العثمانيون أنفسهم، إذ أوعز السلطان لواليه على البوسنة بتسليح الصربيين والاستعانة بهم على «الانكشاريين» والقضاء عليهم، فلما قام الصربيون بمساعدة العثمانيين على ذلك وأخرجوا الانكشاريين من المدن ثم القضاء عليهم، وجدوا بأيديهم السلاح.. فخرجوا على الدولة نفسها وتزعم ذلك تاجر المواشي «قره جورج»، أثناء ذلك كانت الدولة العلية العثمانية منشغلة بحربها مع روسيا ولم تتفرغ لشؤون الصرب - الذين طلبوا مساعدة روسيا

. وهزموها هزيمة منكرة سنة «١٢٣١ هـ = ١٨٠٦ م» واضطرت لمنح قره جورج الاستقلال الداخلي وسحبت حامياتها من جميع القلاع ماعدا قلعة بلغراد.

ولكن روسيا - صديقة الصربيين - عقدت مع السلطان معاهدة بخارست ١٢٢٧ هـ ١٨١٢ م، لتتفرغ لقتال نابليون، وتتفرغ الدولة العثمانية للانتقام من قره جورج، فأرسلت جيشاً لاستعادة نفوذها، وقضت على جيش الصرب بقيادة قره جورج الذي فرّ إلى النمسا.. و ضاع الاستقلال الصربي الذاتي، وجاء «ميلوش أبرونوفيتش Obernovitch»^(١٥). بعد فرار قره جورج، وتزعم الحركة في صربيا «ميلوش أوبرنوفيتش» ولكن الحركة كانت تسير في طريق آخر غير طريق القوة والحرب، فأعلن ميلوش أمام ممثل السلطان «أن الصرب لا يرغبون بالانفصال عن الدولة العثمانية، وإنما يرغبون بالحكم الذاتي» وبعد مفاوضات سلمية بين ميلوش والباب العالي، أعطى الصرب حق الحكم الذاتي تحت إدارة ميلوش بمساعدة مجلس من اثني عشر شخصاً يُنتخبون من قبل أعيان الصرب لإدارة البلاد والمحافظة على النظام، ودفع الجزية سنوياً للسلطان.

واحتفظ السلطان «محمود الثاني»^(١٦) لنفسه بحق تعيين الوالي، وإبقاء حامية عثمانية تمثل نفوذه في بلغراد، وقضى بذلك على أمل روسيا بالتدخل في شؤون البلقان بحجة مساعدة الصرب^(١٧)

-
- (١٥) ميلوش أبرينوفيتش: كان من كبار تجار الخنازير.. تقرب من الباب العالي بهداياه، فعينته الدولة جابياً للضرائب في صربيا، فزاد نفوذه بين أبناء قومه.. وما زال يتقرب من السلطان حتى صار أميراً وراثياً سنة ١٨٣٠ م..
انظر: العالم الحديث/ أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، دمشق ١٩٥٠ (ص ٢٧٧)
- (١٦) محمود الثاني: ١١٩٩ - ١٢٥٥ هـ و ١٧٨٤ - ١٨٣٩ م، قضى على الانكشارية على يد واليه «بكي باشا» - والي البوسنة - عام ١٢٤٢ هـ و ١٨٢٦ م.
- (١٧) انظر: العالم الحديث (ص ٢٧٦ - ٢٧٨)

ميلوش وقره جورج:

اشترك كل من هذين الزعيمين في تأسيس أمانة الصرب، ولكنهما كانا عدوين لدودين.. وعاد قره جورج إلى صربيا عام ١٢٣٢ هـ = ١٨١٧ م لقتال العثمانيين.. ولكن ميلوش قتله وقدم رأسه إلى السلطان عربون إخلاصه وولائه، وشهدت بلاد الصرب بعد ذلك نار الثأر والفتن الداخلية والمؤامرات والاعتقالات بين أسرتي ميلوش وقره جورج.

زاد تقرب ميلوش من الباب العالي حتى منحه السلطان لقب زعيم وراثي، الذي اقترحه المجلس الاثنا عشري، ولقبه السلطان «أمير الصرب» في مقاطعة بلغراد سنة «١٢٣٥ هـ = ١٨٢٠ م»^(١٨).

بقيت مسؤولية الدولة العثمانية تتلخص في المراقبة والبقاء في الحصون والقلاع وعينت (مرعشلي باشا) والياً على الصرب، ثم قوي مركز ميلوش واستبدت بالسلطة وسُمي أميراً وراثياً من قبل المجلس، وتوصل لاعترافٍ عثماني بوضعه الجديد، ومنحت صربيا استقلالها الذاتي في «٨ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ و ٢٨ آب ١٨٣٠ م» وتمكن ميلوش بعد سنوات قليلة من اكتساب ممتلكات جديدة في أراضي صربيا الجنوبية، توفي ميلوش في «٩ ربيع الأول ١٢٧٧ هـ و ٢٦ أيلول ١٨٦٠ م» وهو يطالب الدولة العثمانية الاعتراف بحمكه الوراثي^(١٩). (وتأخر استقلال صربيا النهائي حتى عام ١٢٩٥ هـ و ١٨٧٨ م).

صربيا والاستقلال

صربيا - هذه الدولة الصغيرة - كانت بحدودها الضيقة أمانة مستقلة رغم

(١٨) انظر: العالم الحديث (ص ٢٧٦ - ٢٧٨)

(١٩) انظر: العثمانيين والبلغان (ص ١٩٢ - ٢٩٧)

أنها تابعة للدولة العثمانية التي غادر جنودها صربيا في عام ١٢٨٤ هـ و ١٨٦٧ م، وظلت تحت الحماية الجماعية للدول الكبرى المسيحية منذ معاهدة باريس عام ١٨٥٦ م.

وفي معاهدة برلين «١٢٩٥ هـ و ١٨٧٨ م» حصلت صربيا على بعض المكاسب في الأرض واعترف باستقلالها.. ولكنها انحازت كليا إلى السياسة النمساوية، وأصبح الأمير «ميلان» ملكاً في ١٢٩٩ هـ و ١٨٨٢ م باسم «ميلان الأول أبرينوفيتش» وبقي ملكاً حتى عام ١٣٠٦ هـ و ١٨٨٩ م حيث تنازل لأبنيه «الكسندر».

.. كانت صربيا في عهد الملك ميلان وعهد خلفه الكسندر، محمية للنمسا كما كانت واسطة التغلغل النمساوي في البلقان، ومع ذلك تخلت فيينا عن الكسندر الذي قتل مع زوجته في ليل ربيع الأول ١٣٢١ هـ و ١٠-١١ حزيران ١٩٠٣ م، ومع الملك الجديد الذي ينتسب إلى أسرة قره جورج، حكم باسم «بطرس الأول». وتحررت صربيا من الحماية النمساوية، وراحت تعلن مطالبها في مقدونيا ضد الدولة العثمانية وبلغاريا باسم القوميات. هذا الوضع المتأزم أدى إلى تقسيم البلقان في آخر الحرب العالمية الأولى - كما سنرى - (٢٠).

عصيان في الجبل الأسود:

عانى العثمانيون من أوضاع صعبة وحرجة للغاية، واستحال عليهم إصلاح الإدارة في بعض الولايات، فالثورات المحلية المدعومة من الأوربيين أنهكت قواهم، والمفاوضة التي يتزعمها الحكام والزعماء المحليون، عرقلت جهودهم وخاصة في ألبانيا والبوسنة والهرسك، واضطروا المرة تلو الأخرى

(٢٠) انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا / تأليف وتعريب د. نور الدين حاطوم دار الفكر - دمشق ١٩٨٢ م ج ٤ (ص ٢٨٠ - ٢٨٢)

لإرسال الجيوش بين الأعوام «١٢٤٦ - ١٢٦٦ هـ و ١٨٣٠ - ١٨٥٠ م» للقضاء على هذه التمردات.

.. عندما نشبت المعارك بين سكان الجبل الأسود والدولة العثمانية عام «١٢٧٥ هـ و ١٨٥٨ م» من أجل تعيين حدود أمانة الجبل الأسود - عادت الدول الأوروبية للتدخل من جديد، وحالت دون انتشار القتال واستمراره، وعينت لجنة من مندوبين عثمانيين وأوروبيين وجبليين لحسم النزاع.. وانتَهز الانفصاليون فرصة حدوث انتفاضة في الهرسك وبادروا إلى العصيان، فأرسل السلطان العثماني «عبد المجيد الأول^(٢١)». القائد «عمر باشا^(٢٢)». لإخماد عصيان الهرسك، فسحقه، وحاصر أمانة الجبل الأسود وأمر «نيقولا» - حاكم الجبل - بأن يحل جيشه فلم يذعن وانذلع القتال وتقدم القائد العثماني صوب الجبل من ثلاث اتجاهات. والتقت الجيوش في قلب الجبل بعد أن اكتسحت قوات المتمردين وقضت على معاقلهم، وأرغمت الأمير نيقولا التوقيع على الشروط الجديدة في «٤ ربيع الأول ١٢٧٩ هـ و ٣١ آب ١٨٦٢ م».

وبموجب هذه الشروط يبقى والد الأمير خارج الجبل، وتبني الدولة العثمانية حصوناً وقلاعاً على الطريق بين مدينة «أشقودرة» وبلاد الهرسك - مارة ببلاد الجبل - وجرى العمل فوراً في بناء حصن داخل البلاد - خلافاً لما جرى عليه الاتفاق ..

-
- (٢١) عبد المجيد الأول: ابن السلطان «محمود الثاني» ١٢٥٥ - ١٢٧٧ هـ و ١٨٣٩ - ١٨٦١ م» أجرى إصلاحات إدارية وفكرية واجتماعية، عرفت بالتنظيمات.. وبعهده جرت حرب القرم «١٢٧١ - ١٢٧٢ هـ - و ١٨٥٤ - ١٨٥٥ م
- (٢٢) عمر باشا: قائد عثماني شهير، نمساوي الأصل، «١٢٤٦ - ١٢٨٨ هـ = ١٨٣٠ - ١٨٧١ م»، خدم في الجيش النمساوي ثم اهتدى إلى الاسلام بعد أن هاجر إلى البوسنة وخدم في الجيش العثماني، رقيّ تدريجياً حتى وصل إلى رتب عالية. هزم الروس في عدة مواقع منها حرب القرم.

لم تَرُق هذه المعاهدة للدول الأوربية - كالعادة - وأدعت أنها مجحفة بحق أمة نصرانية، وألحت فرنسا وبروسيا على الباب العالي بعدم ابعاد الأمير «ميركو» والد «نيقولا»، وتساهل العثمانيون - من قبيل الشفقة - رغم استمرارها في بناء الحصون، وأعلن الباب العالي في «٢٣ رمضان ١٢٨٠ هـ = ٣ آذار ١٨٦٤ م»، التنازل عن بناء القلاع مؤقتاً، مقابل أن يقوم الأمير بحفظ طريق الهرسك ودفعه تعويضاً مالياً عن ماسلبه من أموال التجار العثمانيين. ووافق الأمير على ذلك، ومع هذا لم يهدم العثمانيون القلاع التي شيدها وسط بلاد الجبل الأسود الا في «محرم ١٢٨١ هـ وحزيران ١٨٦٤ م» بعد أن أقاموا على الحدود قلعة منيعة تمكّن في الرمي منها لمسافات بعيدة، ثم انتهت الحروب وهدأت بلاد الهرسك.^(٢٣)

ثورة الهرسك ولائحة أندراسي^(٢٤)

(في أوائل «١٢٩١ هـ و ١٨٧٥ م» هاجت الخواطر في بلاد الهرسك على تحريض مجاوريها من الصرب وسكان الجبل الأسود طلباً للاستقلال الإداري).

كانت للنمسا اليد الطولى في إثارة الفتن، لأن هدفها الاستيلاء على ولايتي البوسنة والهرسك. قدّم أهالي الهرسك عريضة إلى الباب العالي^(٢٥) يطلبون

(٢٣) انظر: العثمانيون والبلغان (ص ٢٤١ - ٢٤٦) م .

(٢٤) اندراسي: سياسي مجري شهير ولد «١٨٢٣ م» تعلم في بودابست، وعمل في السياسة وسنة «١٨٤٨ م» كان من أهم دعاة الثورة.. سافر إلى الاستانة وحصل من السلطان «عبد المجيد» على وعد بالمساعدة. صار رئيساً لمجلس وزراء المجر في الحرب الروسية العثمانية ١٢٩٤ هـ - «١٨٧٧ م» توفي في «١٨٩٠ م».

(٢٥) الباب العالي: لقب اشتهر به بلاط السلطان العثماني ومن ثم مقر الصدر الأعظم أي رئيس الوزراء منذ عام «١٧١٨ م» - والسلطان المعني هنا «عبد العزيز» ١٢٧٨ - ١٢٩٣ هـ و «١٨٦١ - ١٨٧٦ م» (انظر: المنجد في الاعلام ط ١٦ ص

تخفيض الضرائب بشكل عام، وعدم فرض ضرائب جديدة في المستقبل، (وأن يشكلوا لبلادهم - قوات أمن خاصة - من أهالي البلاد، فلم يجبهم الباب العالي لطلبهم). ولذلك أعلن السكان العصيان وقاوموا الدولة بالسلاح، ولكن ثورتهم وعصيانتهم أخدمته الدولة وقمعتة فوراً - رغم مساعدة الصرب - والجبليين - سرأً وعلانيةً بالمال والسلاح.

(وفي ١٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٧٥ م و(ذو القعدة ١٢٩١ هـ) قضت المرحم السلطانية بتسكين خاطرهم، فأصدرت «فرماناً» بفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وتعيين قضاة من الأهالي بطريق الانتخاب وتوحيد الضرائب والمساواة فيها بين المسلمين والمسيحيين، ولكن أبت الدسائس الخارجية.. الا استمرار القتال.^(٢٦) ولم تهدأ ثائرة الأهالي وطالبوا بجلاء الجنود العثمانية عن بلادهم كما جلت عن بلاد الصرب، واستمر القتال بينهم وبين العثمانيين بقيادة «الغازى مختار باشا» الذي انتصر على الثوار. ولما رأت النمسا أن الثورة قد انطفأت أو كادت ولم يعد سبيل للتدخل عسكرياً لتنفيذ مآربها، أو عزت الى الكونت «أندراسي» وزيرها الأول بتقديم لائحة سياسية الى الباب العالي بعد مشاركة المانيا وروسيا معها، وقدمت اللائحة المذكورة التي تساند طلبات الثائرين..

وأهم ما جاء في اللائحة:

تشكيل مجلس من أهالي الهرسك يكون مناصفة بين المسلمين والمسيحيين ومراقبة تنفيذ «فرمان ١٢ ديسمبر».. فوافق السلطان حسماً للنزاع وحتى لا يكون للدول سبيل للتدخل وعلاوة على ذلك أصدر السلطان عفواً عاماً عن جميع الذين اشتركوا بالثورة. ولكن نصارى البوسنة والهرسك لم يقبلوا، بل أصروا على اجلاء العثمانيين عن بلادهم، وأن تدفع الحكومة تعويضاً

(٢٦) - انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية/ محمد فريد/ (ص ٣٩٢ - ٣٩٩).

عما هُدم من البيوت والكنائس أثناء الحرب، وأن يكون الدفع للتعويضات بواسطة لجنة أوربية.^(٢٧)..

حرب صربيا^(٢٨) والجبل الأسود^(٢٩).

كانت روسيا مع باقي الدول المسيحية تعمل لايجاد الاضطرابات الداخلية في بلاد الدولة العثمانية... لإضعافها... وأوعزت الى أميرى الصرب والجبل الأسود باعلان الحرب على الدولة العلية^(٣٠).

اذ كانت روسيا تريد توسعة حدودها الغربية من جهة بلغاريا، والنمسا تريد البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول - مع ألمانيا - أميرا الصرب والجبل الأسود بالدعم...^(٣١).

(٢٧) - المصدر السابق نفسه

(٢٨) - صربيا Serbia: كانت مملكة قديمة في أوروبا الوسطى على الضفة اليمنى لنهر الدانوب وهي اليوم جمهورية باسم «صربيا» عاصمتها «بلغراد» انضمت الى اقليم الدولة العثمانية خلال ٧٤٠-١٢٣٣ هـ و١٣٣٩-١٨١٧ م مُنحت استقلالها بموجب معاهدة «برلين عام ١٢٩٥ هـ و ١٨٧٨ م» وتشكلت فيها مملكة سنة ١٣٠٠ هـ و ١٨٨٢ م اجتاحتها القوات الالمانية والنمساوية والبلغارية، وعادت صربيا مملكة بعد الحرب العالمية الاولى ١٩١٨ - ١٩٤١ م - انظر: فن الحرب الاسلامي (م ٥ ص ٣٢٧).

(٢٩) - الجبل الأسود: Monte negro: ويسميه الأتراك «قره طاغ» وهو اقليم صغير في يوغسلافيا - سابقا - يقع على شاطئ الادرياتيكي الى الشمال من ألبانيا، استقل بموجب معاهدة برلين، واصبح مملكة سنة ١٩١٠ وانضم الى يوغسلافيا السابقة ١٩١٨ عاصمته «تيتو غراد (فن الحرب الاسلامي م ٥ ص ٣٢٧)» (٣٢٧ / ٥) الجبل الأسود - الآن - (شكل مع جمهورية «صربيا» يوغسلافيا جديدة في آذار ١٩٩٢ م عدد سكانه (٦٠٠/٠٠٠) نسمة، من مدنه «كوتور» .. (المنجد في الاعلام ص ٥٥٩).

(٣٠) - انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية/ محمد فريد/ (ص ٤٠٩ - ٤٢٠)

(٣١) - فن الحرب الاسلامي - العهد العثماني - (٥ - ٣٢٧).

أخذ أميراً الصرب والجبل الأسود بالاستعداد، وشراء الأسلحة .. وجمع الجيوش .. وأرسلت روسيا أحد قوادها «تشرنايف» إلى بلاد الصرب لقيادة جيوشها، وأخذ معه كثيراً من الضباط الروس للالتحاق بالجيوش الصربي وفي الحقيقة كانت روسيا هي التي تحارب الدولة العلية باسم الصرب وكذلك الأمر في الجبل الأسود.

ولما رأت الدولة هذه الاستعدادات جمعت جيشاً جرّاراً مؤلفاً من أربعين ألف مقاتل بمدينة «نيش» لصد الصربيين إذا تعدوا الحدود.

وفي «٨ حزيران ١٨٧٦ م (جمادى الأولى ١٢٩٣ هـ) أرسل الباب العالي إلى أميرى الصرب والجبل الأسود لمعرفة سبب حشد الجيوش ، فبرراً ذلك بحجة منع تعدى القبائل - الأرنأوط - على حدودهما وحفظ الأمن الداخلي.

ولما تمت الاستعدادات في الأمارتين، طلب الأمير «ميلان» من الدولة العثمانية أن تناط بجيوشه اخماد ثورة البوسنة والهرسك، كما طلب أمير الجبل الأسود «نيقولا» أن تتنازل الدولة له عن جزء من أراضي الهزسك وما ذلك الا لايجاد الذريعة لاشعال الحرب ولكن الدولة العثمانية لم تقبل هذه الطلبات، فاجتازت الجيوش الصربية الحدود تحت قيادة الجنرال «تشرنايف» - الروسي - في أول تموز «١٨٧٦ م» (جمادى الآخرة ١٢٩٣ هـ) وكذلك قوات الجبل الأسود.^(٣٢)

نتائج الحرب:

أن الحرب مع الجبل الأسود لم تتسع لوعورة مسالكة، كما كان من المتعذر على العثمانيين ملاحقة الثوار في المفاوز الوعرة، وكما يستحيل على الجبليين اختراق الجيوش العثمانية المحيطة بهم، لذلك لم تعد مساعدة الجبليين بفائدة

(٣٢) - انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية محمد فريد (ص ٤٠٥ - ٤١٠).

تذكر على الصرب..

أما الحرب مع الصربيين، فقد أجمع المؤرخون العسكريون أن الجنرال «تشرنايف» ارتكب خطأ عظيماً.. في عدم جمع جيوشه في النقطة الوحيدة التي تصل بين بلاد البوسنة والهرسك بباقي أقاليم الدولة العثمانية فيستطيع عند ذلك الاتصال مع ثوار هاتين الولايتين، كما يمكنه بسهولة الانضمام الى مقاتلي الجبل الاسود! لأنه لم يتبع هذه الخطة - كما أشار بها عليه بعض قواده - بل قسم قواته الى أربع فرق.. وخاب مسعاه.. ولم يمض عشرة أيام على بداية الحرب الاوقد انتهت، فانهزمت فرقه الأربعة، في العاشر من تموز «١٨٧٦ م» (جمادى الآخرة ١٢٩٣ هـ)، وكان النصر للجيش العثماني بقيادة «عثمان باشا وعبد الكريم باشا».

بعد هزيمة الصرب فكّر القائد «عبد الكريم باشا» بالتوجه الى مدينة «بلغراد» - عاصمة الصرب - لفتحها.. وفي الطريق فصل بين فرق «تشرنايف» وقطع كل اتصال بينها.. واستراحت الجيوش نحو اسبوعين.. بعدها أمر الجيش العثماني بالسير نحو بلغراد، واستمرت المناوشات مع الجيش الصربي من «٢٥-٢٩ آب ١٨٧٦ م (رجب ١٢٩٣ هـ)»، حتى اجتازت جميع القوات العثمانية نهر «موروا» - أحدر واقد الدانوب -، ولم تجد أما مها أحداً. وفي أول ايلول تمت هزيمة الصربيين وولّى الكثير منهم الأديار فراراً، وباتت القوات العثمانية على مقربة من بلغراد، وعند ذلك وردت أوامر سرية من الأستانة الى «عبد الكريم باشا» قائد الجيش بايقاف القتال وعدم الزحف الى بلغراد ريثما تأتيه أوامر جديدة. وذلك لتدخل الدول الأوروبية بين المتقاتلين، حيث أن الأمير «ميلان» أمير الصرب طلب من الدول الأوروبية في «٢٤ آب ١٨٧٦ م (رجب ١٢٩٣ هـ)» أن تتوسط بينه وبين الدولة العلية ... فاتصلت هذه الدول بواسطة قناصلها بالباب العالي - الذي لم يجيبها - حتى فرّق القائد «عبد الكريم باشا» جميع الجيوش الصربية، ولم يبق من يعارضه في الوصول الى بلغراد، عند ذلك وفي ١٤ ايلول ١٨٧٦ م (آخر شعبان ١٢٩٣ هـ)، أعلن

- أي الباب العالي - أنه لا يقبل الصلح الآضمن شروط أهمها:
أولاً: أن يأتي أمير الصرب الى مقرّ الخلافة ليقدم واجبات الخضوع
للسلطان ..

ثانياً: ان القلاع الأربعة.. تبقى تابعة للدولة ويحتلها الجيش العثماني.
ثالثاً: أن يلغى التجنيد في بلاد الصرب، وأن لا يزيد عدد الجيش الصربي
عن عشرة آلاف جندي وبطاريتي مدافع لحفظ الأمن الداخلي.^(٢٢)

غير أن الدول الأوربية المعنية، لم تقبل هذه الشروط بحجة أنها مجحفة
للصرب - وايضا - طالبت هذه الدول بامتيازات تحصل عليها البوسنة والهرسك
والبلغاريا.. وبعد أن اتفقت الدول الموقعة على معاهدة باريس «١٨٥٦ م»
القاضية بالمحافظة على سلامة الدولة العلية - التي معناها في عرفهم تقسيمها
- أرسل اللورد «دربي» - وزير خارجية انكلترا - الى السفير الأنكليزي في
الاستانة «هنرى تاليوت» رساله ليوصلها الى الباب العالي في «٢٥ أيلول
١٨٧٦ م» (رمضان الخامس منه ١٢٩٣ هـ) تتضمن أن طلبات الدولة العلية
لا يمكن قبولها كلية، وأن الدول ترغب باعادة الصرب والجبل الأسود الى
الحال التي كانتا عليه قبل الحرب، وأن تقوم ادارة وطنية مستقلة في البوسنة
والهرسك .. ربعد أن تداول الوزراء العثمانيون في هذه الطلبات، أجاب الباب
العالي على مذكرة الدول الأوربية بأنه لا ضرورة لا عطاء هذه الولايات
امتيازات ادارية بما أن المجلس النيابي «المبعوثان» سيشكل قريبا ويضم
مندوبين منتخبين من جميع ولايات الدولة - دون استثناء - ولا ضرورة أيضا
لا إبرام اتفاق جديد مع هذه الدول بخصوص ذلك..

..وأوعز الباب العالي الى القائد عبد الكريم باشا باستمرار القتال،
فاستدعى القائد «درويش باشا» الذي كان معسكرا بفرقتة في «نيش» وأمره

(٢٢) - انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية/ محمد فريد/ (ص ٤٠٥ - ٤١٠ م)

بالحجوم على معسكر «تشرنايف» في ٢٩ تشرين الأول ١٨٧٦ م و(٩ شوال ١٢٩٣ هـ)، وبعد قتال عنيف تقهقر الصربيون وانصارهم، وزحفت الجيوش العثمانية إلى مدينة بلغراد.

وفي روسيا، لما وصل خبر انتصار العثمانيين - وهو خلاف ما كانوا يتوقعونه - أرسلت روسيا برقية الى سفيرها في الاستانة «الجنرال أغناتيف» بعد أن اتفقت مع باقي الدول - مساء ٣٠ تشرين الأول للطلب من الباب العالي إيقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود لمدة شهرين، وان لم يكن الجواب خلال ثمان وأربعين ساعة ايجابياً ينسحب السفير وجميع موظفي السفارة من الاستانة؛ لقد قبلت الدولة العثمانية هذا الطلب منعا للعراقيل السياسية، ومنحت المحاربين مدة شهرين هدنة، ثم مُدّدت فيما بعد حتى شهر آذار ١٨٧٧ م (١٢٩٤هـ).^(٣٤)



أحجار ستينشاك

(٣٤) - انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٠٥ - ٤١٠)

الحرب العثمانية الروسية (٣٥)

١٨٧٧ - ١٨٧٨ م - ١٢٩٤ - ١٢٩٥ هـ

أصدر السلطان العثماني أمره الى جميع الفرق بالتصدّي لجيوش العدو «الروسي» ووقفت الدول الأوروبية موقفا سلبيا، وهو موقف مشجّع لروسيا - ضمنا - للمضي في حربها، واستطاعت القوات الروسية عبور نهر الدانوب بعد مجموعة من المعارك يوم ٢٢ حزيران ١٨٧٧ م (٧ جمادى الآخرة ١٢٩٤ هـ)، وأكمل الروس عبورهم يوم ٢٧ حزيران و(١٢ جمادى الآخرة)، فتصدت القوات العثمانية للروس الذين استولوا على مدينة «نيقوبوليس» وسارع الجيش العثماني وحصّن مدينة «بلفنة» وأقاموا حولها حولها سدا منيعا من الجند، ولكن القوات الروسية عاودت هجومها يوم «٢٠ تموز» (رجب)، لكن القوات العثمانية صدت الهجوم وأحبطته، وعاود الروس - بعد أن دعموا قواتهم - هجومهم بعد عشرة أيام، ونجحت القوات العثمانية ثانية في احباط الهجوم الروسي وأنزلت بالقوات الروسية - الرومانية اللتين تعاونتا في الهجوم - خسائر فادحة، وطار خبر هذا الانتصار الباهر الرائع الى الباب

(٣٥) - الحرب العثمانية الروسية: ليست هذه فقط وإنما امتدت من ١٦٩٦ - ١٨٧٨ م سلسلة من الحروب أعلنتها روسيا ضد الدولة العثمانية في سبيل التوسع ، وبدأها بطرس الأول «الأكبر» في السيطرة على دول البلقان، وحققت «كاترين الثانية» انتصارات واسعة واستولت على جزيرة القرم .. انظر: (المنجد ص ٢١٩).

العالي الذي أصدر مرسوما (فرمانا عاليا) يوم ٢٠ رجب ١٢٩٤ هـ = ٣١ تموز ١٨٧٧ م نوّه فيه بشجاعة القوات وهنأها ومنح القائد «عثمان باشا» وساما رفيعا مع ترفيع الأمرء والقادة ومكافأة المقاتلين وأرسل السلطان قواتا إضافية لدعم جيشه، فقرر القائد «عثمان باشا» تقسيم جيشه الى ثلاث فرق.. وانطلقت القوات العثمانية من الدفاع الى الهجوم في حربها، وحقق الهجوم في مرحلته الأولى نجاحا رائعا وكادت الفرق أن تحقق الهدف بإرجاع الروس الى الحدود، ولكن روسيا ورومانيا ألقتا بكامل ثقلهما في المعركة، ومع ذلك استطاع العثمانيون الصمود واحراز بعض الانتصارات أمام مضيق «شيبكا» وحول «بلقنة» غير أن التفاوت الكبير بين القوات العثمانية والقوات الروسية - الرومانية - التي دعمت جيوشها بالعدد والعدد - غير مجرى المعركة واندحرت القوات العثمانية حتى بلقنة حيث حاصرت هذه المدينة المحصنة القوات الروسية الرومانية، في ٢٤ تشرين الأول ١٨٧٧ م (وشوال ١٢٩٤ هـ)، وصار من المحال وصول الامدادات الى الحامية العثمانية بقيادة «عثمان باشا»، ولما تضايق الجيش العثماني من شدة الحصار، جهز «عثمان باشا» الجيش لاختراق القوات المحاصرة، وأعد خطة لذلك، واستطاع الجنود العثمانيون اختراق قلب المحاصرين، غير أن القائد «عثمان باشا» أصيب برصاصة في فخذه وقُتل حصانه فسقط على الأرض مما أثر على سير المعركة. فاستطاعت القوات العدوّة أن تغلب على المهاجمين، فاستسلم عثمان باشا في ١٠ كانون الأول ١٨٧٧ م (٤ ذو الحجة ١٢٩٤ هـ).

وعندما تراجعت الجيوش العثمانية، اغتتم الصرب هزيمة العثمانيين، فأعلنوا الحرب عليهم كما تابع الجبل الأسود قتال العثمانيين، وتقدم الروس في زحفهم واحتلوا مدينة «صوفيا» عاصمة البلغار، ثم تابعوا زحفهم وضيقوا الخناق على الجيش العثماني واصبحوا على مسافة خمسين كيلو متر فقط من العاصمة «استانبول»، فطلب الباب العالي من الدول التوسط بينه وبين الروس حقنا للدماء . ولكن أوروبا لم تلق بالال لهذا الطلب واستمر القتال

ووجهت روسيا جميع جيوشها الى ما وراء جبال البلقان كي تكمل احتلال بلغاريا والروملي الشرقية بمساعدة الجيش الصربي.. في ذلك الوقت احتل سكان الجبل الأسود مدينة «انتيفاري»^(٢٦). ووصلوا ضواحي «اشقودرة»^(٢٧). أما الصربيون فقد دخلوا «نيش»، وعندما وجدت الدولة العثمانية تكاثر الدول عليها، كان لا بد لها من طلب الصلح، لعدم قدرتها على المتابعة، بسبب الوضع الجديد الذي نشأ على الأرض.

انتهت العمليات العسكرية وبدأت المفاوضات بين العثمانيين والروس في ٣١ كانون الثاني ١٨٧٨ م (٢٤ المحرم ١٢٩٥ هـ)، ورفع الباب العالي الحصار عن سواحل روسيا والبحر الأسود، وطلبت النمسا من انكلترا الاشتراك في عقد مؤتمر لمندوبي الدول الموقعة على معاهدة باريس، للنظر في شروط الصلح، خوفاً من أن يمسّ حقوق الدول الأوربية، واضطر العثمانيون التوقيع على المعاهدة الجديدة - التي سميت «معاهدة سان استيفانوس»^(٢٨).

معاهدة سان استيفانوس

التقى مندوبو الدولة العثمانية ومندوبو روسيا في بلدة قرب استانبول على بحر مرمرة، تسمى «سان استيفانوس»^(٢٩)، وتقدم المندوب الروسي

- (٢٦) - انتيفاري: مدينة في ألبانيا - اليوم - قاومت السلطة العثمانية طويلا حتى عام ١٥٧١ م (٩٧٩ هـ).
- (٢٧) - اشقودرة أو شقودر shKODER: بحيرة تقاسمها ألبانيا ويوغسلافيا ٢٧٠ كم، وتقع على ضفافها مدينة بهذا الاسم أو «سكوتاري» «٦٠/١٠٠٠ نسمة» حصن من القرن الخامس عشر (المنجد في الأعلام) ط ١٦ (ص ٢٢٤).
- (٢٨) - انظر: فن الحرب الاسلامي - العهد العثماني - (ص ٣٦٤ - ٣٦٩).
- (٢٩) - سان استيفانوس: بلدة تركية (يزيلكوي) اليوم، عقدت فيها معاهدة تخلت الدولة فيها عن البلقان لروسيا ١٨٧٨ م (المنجد في الأعلام (ص ٢٩٢).

بشروط مسبقة، طلب التوقيع عليها مباشرة والا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل عاصمة الدولة العثمانية استانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار - بسبب هزيمتها. سوى التوقيع على الشروط الروسية ضمن المعاهدة^(٤٠) وفيما يلي بعض بنود هذه المعاهدة:

مادة ١ - «تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الأسود، وذلك لانتهاء المنازعات والمصادمات»

مادة ٢ - «ان الباب العالي يثبت استقلال الجبل الأسود واذا اختلفت الباب العالي مع هذه الأمانة في بعض المسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما، فتحکم فيها دولتا: روسيا واوستريا (النمسا)»...

مادة ٣ - ان امانة الصرب تكون مستقلة.. وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة أشهر.

مادة ٤ - ان المسلمين الذين لهم أملاك في البلاد التي صار الحاقها ببلاد الصرب، اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار، إن أحبوا أجروا أملاكهم، أو أقاموا وكلاء من طرفهم لأجل حفظها واستغلالها.. واللجنة تفصل في برهة ثلاث سنين أمر فراغ الأملاك الأميرية والموقوفة..

وفي مواد هذه المعاهدة الأخرى تعترف الدولة العثمانية باستقلال: رومانيا وتأخذ بلغاريا استقلالاً ادارياً، ويكون موظفوها وجندوها من النصارى فقط، كما يجرى انتخاب أميرها من أهل البلاد بالحرية التامة، ولا يمكن للجنود العثمانيين البقاء في بلغاريا، كما حددت مدة ثلاث سنين لانتهاء أملاك المسلمين الذين كانوا يقيمون في البلاد التي استقلت عن العثمانيين وتُصَفَى كل علاقاتهم بهذه البلاد.

(٤٠) - انظر: فن الحرب الإسلامي (١٥ / ٣٧٨ - ٣٧٩).

كما نصت المعاهدة على أن تبقى مضائق بحر مرمرة:- البوسفور والدرديل
- مفتوحة للسفن الروسية زمن الحرب والسلم.

وفي المادة التالية مقدار الغرامات الموضوعة على الدولة العثمانية.
مادة ١٩ - «أن مبالغ التضمينات الحربية التي طلبها حضرة قيصر روسيا
هي في مقابل الأضرار والخسائر التي تكبدتها دولة روسيا بسبب هذه
الحرب والباب العالي تعهد بدفعها»
وهي كما يلي:

٩٠٠ مليون روبل رواتب الجند ونفقاتهم وثمان العتاد الحربي والاعباء
التي دُمّرت.

٤٠٠ مليون روبل مقابل الأضرار التي أصابت السواحل الروسية
الجنوبية.

١٠٠ مليون روبل مقابل الضرر الذي حصل من جراء الهجوم العثماني
على القفقاس.

١٠ ملايين روبل مقابل الأضرار التي أصابت المواطنين الروس المقيمين
في الممالك العثمانية ومؤسساتها.

فيكون مجموع المبالغ المطلوبة - كتعويضات - ١٠٤ / ١ مليار روبل أو
٣٩١ / ٢١٧ / ٢٤٥ مليون ليرة عثمانية ذهبية وريال مجيدي أبيض ونصف.

«هذا وأن القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة
المال.. ووافق بالقبول على أن تترك الدولة العلية الأراضي المحررة أسماؤها
أدناه عوضاً عن أكثر المبالغ المذكورة»

وطلبت روسيا مجموعة من الأراضي التي تجاور روسيا من الشرق
والجنوب والغرب من حدودها مع إيران الى حدود رومانيا، مقابل مليار
ومائة وعشرة ملايين روبل، وأما الباقي وهو ثلاث مائة مليون روبل - ما

عدا عشرة ملايين روبل مقابل خسائرا المواطنين الروس . -

مادة ٢٩ . «أمبراطور روسيا والسلطان سيثبتون هذه المعاهدة، ووثائق التثبيت يكون معاطاتها في «سان بطرسبورغ»^(٤١)». بظرف خمسة عشر يوما.. حرر في «ايا استيفانوس» في ١٩ شباط الرومي و٣ مارس (آذار) الافرنجي ١٨٧٨ م (صفر ١٢٩٥ هـ)^(٤٢)..

نتائج المعاهدة:

كان من نتائج هذه المعاهدة، سلخ كامل ممتلكات الدولة العثمانية عن جسمها في أوروبا، عدا بعض القطع الصغيرة المتفرقة والتي لا يمكن الدفاع عنها لعدم اتصال أجزائها ببعضها، وهي عبارة عن أربع قطع، لا اتصال بين ثلاثة منه الا بطريق البحر ولايزيد الفاصل بين أراضي الصرب والجبل الأسود عن خمسة كيلو مترات، بحيث تستطيع كل منها منع الجيوش العثمانية من المرور وقطع الطريق كلية عليها، واحدى القطع هي: مدينة استانبول وضواحيها فقط، وتحيط بها إمارة بلغاريا، وجزء من ولايتي البوسنة والهرسك، وما بقي منهما، أعطي جزء للصرب وآخر للجبل الأسود ويمكن القول ان خلاصة الأمر انحصرت في تخلي الدولة العثمانية عن ممتلكاتها في أوروبا عدا «البانيا» وبلغت خسارتها بموجب معاهدة سان استيفانوس ٨٣٪ من الاراضي و٦٩٪ من السكان، وبقيت هذه المعاهدة دون تطبيق لاختلاف البلقانيين على تقاسم الاراضي، لأن هذه المعاهدة لم تراعى في تقسيماتها مصالح الأمم المراد سلخها عن الدولة، ولا مراعاة حدودها، بل

(٤١) - سان بطرسبورغ = لينينغراد: مدينة (روسية) على مصب نهر نيفا في خليج

فنلندا عدد سكانها (٥ / ٥٠٠ / ٠٠٠) ملايين نسمة، أسسها بطرس الأكبر ١٧٠٣

م اصبحت العاصمة بدل موسكو حتى ١٩١٧ م (المنجد ص ٥٠٦)

(٤٢) - انظر: تاريخ الدولة العثمانية/ محمد فريد/ (ص ٤٤٣ - ٤٦٣).

أضافوا وخلقوا كثيراً من المشاكل، حيث ضمّوا إلى بلغاريا بلاداً كثيرة وأغلب سكانها من الروم والصرب، وأضافوا إلى الصرب والجبل الأسود بلاداً فيها كثير من الأرناؤوط المسيحيين والمسلمين، ولذلك كانت كل هذه الأمم غير راضية عن هذه المعاهدة والتي لم يراع فيها الاصلح سياسة روسيا^(٤٣)، وأرسلت هذه الأمم رسائل إلى سقراء الدول الأوروبية، طالبة إعادة النظر في هذه المعاهدة وصون حقوقهم، وكذلك كان الرأي العام الأوروبي ناقماً على روسيا، أما انكلترا فكانت أكثر الدول تخوفاً من نتائج هذه المعاهدة لوجود الروس بالقرب من مضيق البوسفور، لذا كانت أشدّ معارضة من غيرها في هذه المعاهدة وتودّ تعديلها لتظهر أمام الهنود بمظهر القوة والبأس ونفوذ الكلمة في أوروبا، أما النمسا فكانت معارضتها لرغبتها بامتلاك اقليمي (البوسنة والهرسك) ليسهل وصولها بعد ذلك إلى الاستيلاء على ميناء سالونيك على الساحل اليوناني وليكون لها منفذ على البحر، أما ألمانيا فكانت تساعد روسيا - أدبيا - وإيطاليا لم تكن لها مصالح ولا تودّ الاشتراك في حرب أوروبية..

تأزم العلاقات الدولية:

يتضح مما سبق أن المعارضة الأساسية كانت منحصرة أولاً: في انكلترا، «لاحباً في الدولة العلية الاسلامية، بل خوفاً على نفوذها في الهند» وثانياً: مملكة النمسا لعدم حصولها على منافع في هذه المعاهدة. لهذا قامت انكلترا بلفت نظر روسيا بأن كل شرط يتم الاتفاق عليه بين روسيا والدولة العلية يكون مخالفاً لنصوص معاهدة باريس ١٨٥٦ م.

واقترحت النمسا بعقد مؤتمر برلين برئاسة بسمارك^(٤٤) للنظر بالأمور

(٤٣) - انظر: فن الحرب الاسلامي (ص ٢٧٨ - ٢٧٩ م ٥).

(٤٤) بسمارك BISMARCK: (اوتوفون) ١٨١٥ - ١٨٩٨ م: سياسي ألماني، عمل على

الطارئة من الدول المعنية، فقبلت الدول معاهدة سان استيفانوس، ولكن روسيا عارضت هذا الشرط، وساعات العلاقات بينها وبين انكلترا التي أخذت تستعد لخوض الحرب، وجمعت أكثر سفنها الحربية في جزيرة «مالطة»^(٤٥)، لاكراه روسيا على تعديل المعاهدة - ولو بالقوة - لاضرارها بالمصالح الانكليزية^(٤٦).

.. سعت روسيا لدى النمسا لثلا تساند انكلترا اذا نشبت الحرب بينهما بسبب معاهدة سان استيفانوس، كما تتعهد روسيا بإعطائها اقليمي اليوسنة والهرسك، فلما رأت النمسا أن انكلترا تستعد للحرب برأ وبحراً بشكل مثير، لم تعط مندوب روسيا جواباً شافياً حتى ترى ما تقضي به السياسة الانكليزية، فتنحاز إلى الفريق الذي تكون سياسته في صالحها!

.. عملت روسيا على تهدئة مسلمي بلغاريا الذين ثاروا ضد جنودها

تحقيق الوحدة الألمانية. أصبح مستشار الامبراطورية بعد الانتصار على فرنسا ١٨٧٠ م. جعل بلاده قوة أوربية ودولة استعمارية. المنجد في الاعلام ط (١٦ ص ١٢٨)... يعتبر بسمارك المؤسس الحقيقي للامبراطورية الالمانية، كما يعتبر أحد أبرز عباقرة السياسة في التاريخ الحديث. اشتهر بالحزم والاستبداد فدعى «المستشار الحديدي (م المورد العربية ١/٢٢٩).

(٤٥) مالطة MALTA: دولة وجزيرة في المتوسط، جنوبي جزيرة صقلية الايطالية، ولا تبعد عنها أكثر من ٨٠ كم وعن تونس ٢٦٠ كم، عاصمتها «فالتا»، يتبعها أرخبيل من عدة جزر، فتحها الأغالبية المسلمون عام ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ثم انتقلت إلى حكم الفاطميين من ٢٧٩ - ٤٨٣ هـ و ٩١٠ - ١٠٩٠ م، خضعت عام ٩٣٧ هـ (١٥٣٠ م) لحكم فرسان القديس يوحنا حتى فتحها العثمانيون ٩٥٩ هـ (١٥٥٣ م) ثم بونابرت ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) ثم الانكليز ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م، استقلت ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م، من دول الكومنولث البريطاني سكانها أواخر السبعينات ٣٥٠ ألف نسمة بينهم أربعون ألف مسلم ١١٪ من السكان انظر: (المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية ص ٢٤ والمنجد في الاعلام ص ٥١٤).

(٤٦) انظر: فن الحرب الاسلامي (ص ٣٧٨ - ٣٧٩ مجلد ٥).

ويدافعون عن أنفسهم ضد تعديات نصارى البلغار الذين يعتمدون على مساعدة الروس لهم.. وانتشرت الثورة في جميع جهات بلغاريا حتى حدود الصرب، ولما كانت روسيا واقعة في ضائقة مالية لم تمكنها من احتمال ماوصلت إليه البلاد، كتب قيصر روسيا^(٤٧) الى خاله «غليوم الأول» امبراطور المانيا للتوسط بينه وبين انكلترا، وأنه مستعد للنظر في جميع بنود معاهدة سان استيفانوس^(٤٨).

في ٣٠ ايار ١٨٧٨ م (جمادى الأولى ١٢٩٥ هـ) تم الاتفاق على تعديل المعاهدة المذكورة. «فصادقت انكلترا على أهم شروط المعاهدة وقبلت تشكيل أمانة البلغار الجديدة بعد تقليل مساحتها، وتشكيل الجزء الجنوبي منها بهيئة ولاية مستقلة - تقريباً لاتلبث أن تنضم الى امانة البلغار - وأثبتت سواحل الروم تابعة للدولة (العثمانية) بما فيها مدينة «قولة» - خوفاً من أن تتخذها الروسية - مرسى لمراكبها، وهو الأمر الذي تسعى انكلترا جهدها في منعه حفظاً لسيادتها على البحار^(٤٩).

مؤتمر برلين: (٥٠)

هذا المؤتمر عقده ممثلو الدول الأوربية الكبرى برئاسة بسمارك لحل الأزمة التي نشأت عن معاهدة سان استيفانوس، وقد ألقى المؤتمر هذه المعاهدة واستعاض عنها بمعاهدة جديدة عرفت بمعاهدة برلين، مرضياً بذلك بريطانيا (بحرمان الروسية من المكاسب التي منحتها اياها معاهدة

(٤٧) قيصر روسيا: اسكندر الثاني (١٢٧٢ - ١٢٩٨ هـ = ١٨٥٥ - ١٨٨١ م)، امتاز عهده باصلاحات أهمها تصفية الرق

(٤٨) للاطلاع أكثر على معاهدة سان استيفانوس ونتائجها انظر: تاريخ الدول العلية (ص ٤٤٣ - ٤٦٣).

(٤٩) المصدر السابق

(٥٠) انظر في الملاحق: نص دعوة بسمارك لمؤتمر برلين.

معاهدة برلين

دعت النمسا الدول لحضور مؤتمر يعقد في مدينة «برلين»^(٥٢). وقد اختارتها لأن ألمانيا ترى من الضرورة أن تحتل النمسا ولايتي البوسنة والهرسك.. وكان أهم ما اتفق عليه المؤتمر في برلين، تعديل معاهدة سان استيفانوس^(٥٣)

انعقد مؤتمر برلين بحضور: الدولة العثمانية، بريطانيا، ألمانيا، النمسا، المجر، فرنسا، إيطاليا وروسيا «يريدون لأجل اقرار الراحة العامة في أوروبا وأنها. المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الأحوال فيها».. وأهم مواد المعاهدة هي:

مادة ١ - تكون بلغاريا أمانة مستقلة في أمورها الداخلية، تحت التبعية العثمانية.

مادة ٢ - المسلمون وغيرهم من أصحاب الأملاك في بلغاريا ويسكنون خارجها يجري خلال ثلاث سنوات تصفيتهم.

مادة ١٣ - تشكيل في جنوب البلقان ولاية «الروملي الشرقية» تتبع الدولة العثمانية ويكون واليها نصرانياً.

(٥١) انظر: موسوعة المورد العربية / (١ / ٢١٨).

(٥٢) برلين: عاصمة ألمانيا قبل ١٩٤٥ م، تقع على نهر شيري وسط السهل الألماني

(اصبحت بعد الحرب العالمية الثانية مقسمة إلى برلين الشرقية تحت سيطرة

الروس وعاصمة لألمانيا الديمقراطية وبرلين الغربية مقسمة أيضاً بين الولايات

المتحدة وبريطانيا وفرنسا) وأقيم جدار بين القسمين الشرقي والغربي ١٩٦١

م) أزيل الجدار نهائياً وتوحدت ألمانيا من جديد ١٩٩١ م مع سقوط الشيوعية).

(٥٣) انظر التاريخ الاسلامي (ص ٢٩٦).

مادة ٢٥ - تقوم النمسا والمجر بإدارة البوسنة والهرسك.
مادة ٢٦ - يعترف الباب العالي باستقلال الجبل الأسود وكذلك اعترفت
به بقية الدول الموقعة على هذه المعاهدة.

مادة ٣٠ - المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات في الأراضي التي
انضمت إلى الجبل الأسود ويستوطنون خارج الجبل، تسوى أمورهم خلال
ثلاث سنوات.

مادة ٣٥ - لايجوز التمييز بين العقائد الدينية في الصرب ضد أحد.
مادة ٤٥ - أمانة رومانيا تعيد إلى روسيا أراضي بيسارابيا - التي كانت
قد انفصلت بمعاهدة باريس ...

مادة ٦٢ - لايجوز التمييز في العقائد الدينية في جميع أراضي الدولة
العثمانية.

مادة ٦٣ - تبقى معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ آذار ١٨٥٦ م (٢٢ رجب
١٢٧٢ هـ) ومعاهدة لندن الموقعة في ١٣ آذار ١٨٧١ م (نوالحجة ١٢٨٨ هـ)
مرعية الاجراء

برلين ١٣ تموز ١٨٧٨ م (١٣ رجب ١٢٩٥) (٥٤)

حول معاهدة برلين ونتائجها:

إذا أمعنا النظر في مواد جميع المعاهدات التي تأمر الغرب في إبرامها
ضد الدولة العثمانية نجد أن الدولة العلية هي الخاسرة دائماً وعلى كل حال،
وفي معاهدة برلين خاصة، ففيها أصبحت أمانة بلغاريا مستقلة إدارياً،
وفصلت ولاية الروملي بأكملها عن الدولة، وحظر عليها إقامة جيوش فيها

(٥٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٤٧١ - ٤٩٣).

ويكون واليهما باتفاق الدول ومُنحت ولايتا البوسنة والهرسك الى النمسا - المجر، وتوسعت أراضي الصرب والجبل الأسود.

كانت معاهدة برلين أشد وطأة على الدولة العثمانية وأكثر ثقلًا من معاهدة سان استيفانوس، وكانت انكلترا^(٥٥) هي المنتصرة، ومعها كافة دول الغرب الصليبي، وفوق ذلك. جعلت الدول الأوروبية الحق لنفسها بمراقبة أمور الدولة العثمانية بحجة حماية المسيحيين^(٥٦) لقد عدل مؤتمر برلين ومعاهدة برلين العلاقات الدولية تعديلًا شاملاً، فقوى العداء بين روسيا وانكلترا وأخذ القيصر يبتعد عن ألمانيا، لأنه لم يكن يأمل من بسمارك أن يقف هذا الموقف المؤيد للدول الأوروبية ضد حليفة الأمس روسيا، وكان القيصر ينتظر رد الجميل من بسمارك! كما لم يكن ينتظر موقف النمسا العدائي، وبذلك بدا حلف الأباطرة الثلاثة (روسيا، ألمانيا، النمسا) .. يترنح ويتفكك وبدأت سلسلة الأحداث المتتالية التي وسّعت شقة الخلاف بين روسيا ودولتي الوسط (ألمانيا - النمسا) ورمت روسيا في أحضان فرنسا^(٥٧)

البلقان بعد الحرب العثمانية الروسية

أصبحت البلقان في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر جزءاً من النظام السياسي والاقتصادي الأوربي فالاحتلال الروسي أدى إلى عداء وتنافس مريرين بين الروس وامبراطوية النمسا - المجر.

وتدخلت الأسر الأوروبية الحاكمة في شؤون البلقان لأسباب استعمارية

(٥٥) انكلترا وقعت مع السلطان عبد الحميد الثاني قبل انعقاد مؤتمر برلين، معاهدة سرية في حزيران ١٢٩٦هـ - ١٨٧٨م تنازل فيها السلطان عن جزيرة قبرص مقابل تأييدها له في المؤتمر ودفع الخطر الروسي عن أسبانيا الصغرى، انظر: العالم الحديث (٣٤٣ - ٣٤٥).

(٥٦) انظر: فن الحرب الاسلامي (٥ / ٣٨٦ - ٣٨٧).

(٥٧) انظر: العالم الحديث (ص ٣٤٤).

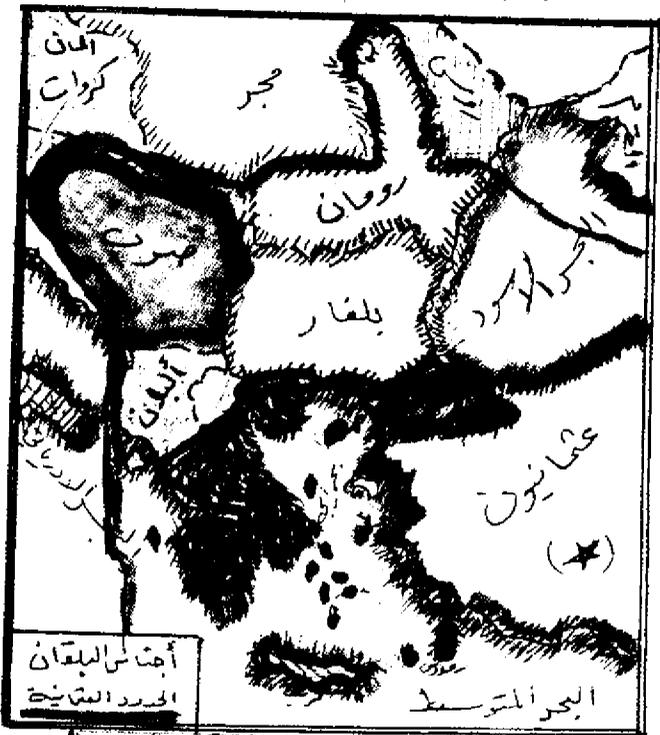
صوب الشرق بالإضافة إلى الضعف المتزايد في جسم الدولة العثمانية.

وكانت مسألة مقدونية عنصر نزاع واسع في البلقان.. فالبلغار ادّعوا أن مقدونيا بلغارية، وطالبت بها دولة الصرب على أنها صربية، (وكذلك اليونان تطالب بأنها يونانية). ان موقع مقدونيا الجغرافي جعلها في مركز الوسط من شبه جزيرة البلقان ومخرجها إلى بحر إيجه يشكل العمود الفقري الاستراتيجي لشبه الجزيرة أيضاً، وفي العقدتين الأخيرين من القرن التاسع عشر، شجعت النمسا الصربيين وأيدت مزاعمهم حول مقدونيا، بينما دعم الانكليز اليونان، وتطور الصراع من أجلها حتى أخذ شكل نشاط مكثف لعصابات مسلحة ومزقت الصراعات مقدونيا. وأحمد العثمانيون انتفاضة مسلحة جرت عام ١٣١٢ هـ ١٩٠٢ م.

أما الألبان (الأرناؤوط)، ارتبط المسلمون منهم بالعثمانيين برابطة العقيدة ووجدوا أن الدولة العثمانية أكبر ضامن لمصيرهم وأفضل مدافع عنهم في وجه النصارى البلقانيين، وكانت الأمة الألبانية مجزأة بين قبائل (التيجين) في الشمال الجبلي (والتوسكانيين) في السهول الجنوبية إضافة إلى وضع مستوطنات في أقاليم : كوسوفا ومقدونيا الغربية، وأبيروس^(٥٨)، فكان سكان الشمال من الروم الكاثوليك. بينما استوطن المسلمون في الجنوب، واستوطن اليونانيون الأرثوذكس في أبيروس.. وحدثت خلال القرن التاسع عشر بعض الثورات المحلية ضد العثمانيين.. ثم نشأت رابطة للدفاع عن مآذعي بحقوق الأمة الألبانية عام ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م في إقليم كوسوفا، فكانت أول حركة ثورية ألبانية منظمة جاءت كرد فعل على قرارات برلين، وحاربت هذه الرابطة ضد التنازل عن أية أراضٍ ألبانية للجبل الأسود وتصدي العثمانيون لهذه الحركة وأخمدوها عام ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م.

(٥٨) ابيروس epiros مملكة قديمة في البلقان جنوبي مقدونيا، أشهر ملوكها بيروس الثاني ٢٩٥-٢٧٢ ق م (المنجد في الأعلام ص ٢٤ ط ١٦).

أما في يوغسلافيا، فمن المعلوم أن الأراضي هنا كانت قد جزئت عام ١٢٩٣ هـ - ١٨٦٧ م وحدثت الانتفاضة الاسلامية الصربية عام ١٢٩٩ هـ ١٨٨٢ م وبرهنت على استياء الفلاحين من النظام الاجتماعي والسياسي الجديد، ونادت صربيا بالملكية بالعام نفسه^(٥٩).



(٥٩) انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٥٠ - ٢٥٢).

القضية القومية:

تعريفها:

القومية تصبح «أمة» عندما يكون لها اطار دولي، وعندما نلفظ الكلمة «أمة»، نفكر أولاً ب (أرض)، أرض محددة، تحتوي على الجماعة التي هي «القومية».

.. ولكي تبقى الأمة وتدوم - وأيضاً - لتولد، يجب أن يكون لها «اطار»، وهذا الاطار، حقوقياً وسياسياً هو «الدولة»، وجغرافياً هو «الحدود»، ويجب أن يكون للأمة أرض محددة بحدود، وقام جدل حول هذا الأمر، وأمكن إعطاء الأمة تعريفاً آخر، يخرج اللغة المشتركة والأرض المشتركة معاً. وعليه تكون الأمة: مجموعة من الناس، تجمعهم صفة واحدة على صعيد وحدة المصير.

.. ومن الواضح أنه اذا أريد تطبيق مبدأ القوميات على ضخامة أو بناء الدولة، فإن التعريف يظهر صعباً. إن مفهوم القومية في كل ما في القومية من ايجابيات، أي الصفات: الأرض، الاطار الدولي، اللغة، التراث، التاريخ المشترك، لا يكون - دوماً - لهذا المفهوم، حدوداً واضحة جداً. لأن الأمة لا تعطى دفعة واحدة، ولا تنشأ مشكّلةً تماماً بصفات المميّزة.

وأي تعريف دقيق للأمة، يمكن أن تعود كلمة «التاريخ» في كل لحظة، لأن الأمة تتشكل تدريجياً، وهذا يعني أن صفاتها تظهر رويداً رويداً، وأن الوعي

بالتبعية لجماعة قومية، يتشكل بالتدرج، وأن العاطفة القومية، وبالتالي العاطفة الوطنية (حب الوطن)، هي من أصل حديث نسبيا.

وفي الحقيقة أن جميع أمم العالم، وبخاصة الأمم الغنية منها تميل الى إرجاع أصلها الى أبعد مايمكن في الماضي، وتنحت لنفسها ألقاب القديم، وتبرهن على وجودها في زمن - ربما - لم تكن فيه، من الوجهة التاريخية قد تشكلت جيدا كما تزعم.

القومية ونزعة السيطرة:

.. في الواقع تنزع القومية الى تجاوز هدفها باستمرار. واذا تأسست على اهتمام شرعي بالاستقلال، فهي تحمل في ذاتها، وفي جوهرها مطالب أرضية، وينتج عن ذلك، أن الأقليات القومية يجب ألا تدرس فقط في علاقاتها مع الدولة المسيطرة، أو مع الدولة المطالبة، وانما - ايضا - في علاقاتها المتقابلة في اطار دولة واحدة، أو في اطار عدة دول.

ان نزاع القوميات يغذى بحجج لا تستمد من الخصائص الحاضرة للأقليات القومية فحسب، وانما أيضا من حجج مستمدة من التاريخ، ومن البديهي، من التاريخ المفسر لصالح كل من الأطراف المتنازعة^(٦٠)

قضية الدولة متعددة القوميات:

.. لقد قدرت الشعوب أن من الطبيعي.. والشرعي، أن تتمكن الأمم من تقرير مصيرها بنفسها، وأن هذا حق محترم، وأن الحدود السياسية - حدود الدول - تتطابق مع حدود الأمم نفسها، وباختصار، ان قيمة الدولة القومية لم توضع على بساط البحث، وأن تحقيق الوحدات القومية الكبرى في القرن

(٦٠) انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا/ نور الدين حاطوم، دار الفكر - دمشق ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م (٢٣٩/٤ - ٢٤١).

التاسع عشر، تشكيل الوحدة الألمانية، والوحدة الإيطالية، والوحدة الرومانية وبالعكس في القرن العشرين، ان دمار الدولة النمساوية الهنغارية، والعثمانية، والمناقشات التي سيطرت على ابرام معاهدة فرساي^(٦١) في ١٩١٩ م و(١٣٣٧ هـ). ان كل ذلك يبرهن عن أن مبدأ الدولة القومية، دولة تكون فيها حدود الأمة والدولة متطابقة، كان مقبولاً عموماً^(٦٢).

.. ان نمو الوعي يمكن أن يكون سريعاً وصاعقاً أيضاً.. وبخاصة عندما يُدرس تاريخ البلقان. ومن الصحيح.. أن القوميات.. التي تظهر بمعارضتها وبكراهيتها لجيرانها نستطيع أن نقول:

ان هذه القوميات أصيبت بمرض القومية الطفولي.. ومثال هذا النوع «مقدونيا» وهي منطقة متنازعة.. وقد تأرجحت سلبياً بين الدول السلافية المجاورة أي «صربيا وبلغاريا» بعد ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م. أدمجت بصربيا عام ١٣٢١ هـ ١٩١٣ م ثم بدولة يوغسلافيا الجديدة التي أنشأتها معاهدة «تريانون»^(٦٣). في ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م وسميت مملكة الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين وعندئذ خضعت مقدونيا (لقوة) الدمج ومركزية الدولة الصربية الكرواتية. إلا أنها بعد الحرب العالمية الثانية حصلت على استقلال ذاتي، لغوي وإداري، في إطار دولة جديدة هي: جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية الاتحادية

(٦١) فرساي versailles: مدينة فرنسية.. اشتهرت بقصورها وجنائنها ومتاحفها. كانت مقاماً لملوك فرنسا. وقعت فيها معاهدة فرنسا عقب الحرب العالمية الأولى ١٩١٩ م.

(٦٢) لزيادة المعرفة عن قضية القوميات انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٢٢٩/٤-٢٦٣).

(٦٣) تريانون: اسم القصر الذي وقعت فيه المعاهدة انظر: فقرة «العثمانيون والبلقان» بعد انتهاء الحرب - العالمية الأولى.

لقد ساعد الحل الاتحادي.. على التوفيق لحد ما - كما في شبه جزيرة البلقان - بين مصالح. يوغسلافيا المؤلفة من ست جمهوريات.. فكل جمهورية لها استقلالها اللغوي والإداري ولاشك في أن حدود الدولة الجديدة لا تتطابق تماماً مع حدود الجماعات القومية^(٦٤).

من هذا التوزيع السكاني بين جمهوريات يوغسلافيا، نشأت الخلافات القومية التي سيطر عليها مؤسس الدولة الاتحادية «تيتو»^(٦٥). وجعل الكل ينادي بقومية يوغسلافية واحدة ولكن كل هذا لم يمت الشعور القومي الذي ما أن رحل تيتو عام ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م حتى سارع الزعماء الوطنيون الى اقتناص الفرصة لتصحيح أوضاع اعتبروها خطأ تاريخياً^(٦٦).

البلقنة والقومية السلافية.

كانت النمسا - المجر وروسيا هما القوتين الرئيسيتين في الصراع الدائر لوراثة الدولة العثمانية، - رجل أوروبا المريض - وللسيطرة على البلقان في

-
- (٦٤) انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا (ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٦٣).
- (٦٥) تيتو: جوزيف بروز TITO ١٨٩٢ - ١٩٨٠ م زعيم الحركة اليوغسلافية في مقاومة النازية، ورئيس اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية. ومن رواد الحياض الايجابي وعدم الانحياز - ولد تيتو من عائلة فلاحين فقيرة في كرواتيا بالقرب من مدينة «زغرب» عاصمة كرواتيا، بعد احتلال النازيين ليوغسلافيا واستسلام الجيش الملكي، حمل تيتو ورفاقه لواء المقاومة حتى تحرير يوغسلافيا، ١٩٤٤ بعد التحرير حرص تيتو على السير في منهج اشتراكي خاص بيوغسلافيا مما أدى ذلك الى الصدام مع ستالين ووقوع المقاطعة بينهما. اهتم بابرار دور العلاقات الاقتصادية في الميدان العالمي. (انظر: الموسوعة الاشتراكية / د. محمد حلمي مراد ومحمود أمين العالم وغيرهما/ دار الوطن العربي للنشر، بيروت (بدون تاريخ) (ص ٩٨ - ١٠٠).
- (٦٦) انظر: مجلة المختار من ريدرز داهجست رمضان ١٤١٢ هـ آذار ١٩٩٢ م (ص ٤٢ - ٣٦).

النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان هدف روسيا التاريخي، هو التحكم بمضيقي: البوسفور والدردينيل والاستيلاء على عاصمة الدولة العثمانية «استانبول» لتؤمن لنفسها منفذاً إلى المياه الداقتة.

أما حكومة النمسا - المجر، كان هدفها تحطيم آمال الروس في البلقان، وقد دعمت بريطانيا وألمانيا ذلك.

تعثر المطامح الروسية

في سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ م ١٢٩٤ - ١٢٩٥ هـ عندما وقفت روسيا تساند أمارتي الصرب والجبل الأسود ضد الدولة العثمانية، وتدعم المسيحيين السلاف في الهرسك، استطاعت هذه القوى دحر القوة العثمانية التي أرسلت لاختماد ثورة الهرسك .. ألهب نجاح الصرب وأهل الجبل الأسود، خيال الشعوب السلافية في أمبراطورية النمسا- المجر. التي كانت تساعدها الحكومة ماديا ومعنويا لدعم الجماعات التي تعمل لا تحاد السلافيين في الجنوب.

صربيا مصدر المشاكل

..بما أثارته صربيا، شعرت حكومة النمسا - المجر - متعددة القوميات بالخطر، فبذلت جهودا مضاعفة للسيطرة على صربيا وقهرها «اذ كانت في نظر (آل هابسبورغ) مصدر المشاكل في دولتهم. «وفي سنة ١٢٢٦ هـ - ١٩٠٨ م» كان ضم ولايتي البوسنة والهرسك رسميا الى الأمبراطورية النمساوية - المجرية نتيجة لهذه السياسة. كما كانت «لإحباط القومية السلافية الجنوبية»

نذير العاصفة

بعد ضمّ البوسنة والهرسك الى الامبراطورية، تحول اندفاع القومية الصربية في بادىء الأمر جنوبا تجاه البانيا وجنوب شرق «مقدونيا»، فطالبت كل من صربيا وبلغاريا واليونان بهما، لكن مؤتمر برلين أعادهما الى الدولة

العثمانية. أقامت الدول البلقانية الأربع وهي: اليونان و صربيا وبلغاريا والجبل الأسود، مايسمى «بعصبة البلقان»^(٦٧). (وكان هذا نذيرا للعاصفة بأنها آتية قريبا لتصفية الحسابات بين عصبة البلقان وبين الدولة العثمانية، وهذا ماظهر في الحرب البلقانية الاولى، ثم الثانية التي كانت سببا في اقتتال دول العصبة، لا خلافهم على توزيع المكاسب - كما سنرى فيما يأتي -).

نضوج الفكرة القومية عند الشعوب

نمت الفكرة القومية خلال القرن التاسع عشر نمواً مضطربا، فكانت تتعثر أحيانا.. وتنجح أحيانا أخرى.. كما في الوحدتين، الايطالية والألمانية، كما استطاعت بعض الأمبراطوريات الكبرى كروسيا والدولة العثمانية وأميراطورية النمسا والمجر، أن تضغط على الروح القومية لتبقى لها السيطرة على شعوبها المحكومة، ولكن.. لم يكتب لها الفوز التام على القوميات. فقد أخذت الشعوب الخاضعة للعثمانيين من صرب ويونان وألبان وبلغار ورومان، بالا تفصال تدريجيا عن جسم الدولة، وكان سبب الحرب العالمية الأولى.. وقلق النمسا من نمو الروح القومية عند الصرب، (والذي أدى الى اغتيال ولي عهدنا، واشتعلت نار الحرب).. فغذت الحلفاء الروح القومية عند شعوب دول المحور ليضموهم الى صفوفهم، وأعلن الرئيس «ولسون» في بعض مبادئه الاربع عشرة^(٦٨) تأييده للقوميات واعطائه الشعوب حلّ تقرير

(٦٧) انظر: سلسلة بهجة المعرفة (المجموعة الثانية ٥) الشركة العامة للنشر والتوزيع

والاعلان ليبيا - طرابلس، طبع ايطاليا ١٩٨٣ م (ص ٢١٦ - ٢١٩).

(٦٨) ولسون (رئيس الولايات الأمريكية المتحدة) ومبادئه مؤلفة من أربع عشرة مادة

منها:

- ١ - حرية الملاحة في البحار في السلم والحرب معا.
- ٢ - الجلاء عن أراضي رومانيا، والصرب والجبل الأسود والسماح للصرب بالوصول للبحر الأدرياتيكي، وحل مشاكل البلقان على أساس القوميات.. وغيرها من المبادئ..

مصيرها.. وقرر مؤتمر باريس إعادة رسم خريطة أوروبا على أساس القوميات، فاقترضى ذلك ازالة أربع إمبراطوريات كبيرة من هذه الخريطة وهي: الامبراطورية العثمانية، الروسية، الألمانية، النمساوية - المجرية - وابراز ست دول قومية جديدة هي: بولندا تشيكوسلوفاكيا، ليتوانيا، لاتفيا، استونيا، فنلندا، وقد رضيت روسيا الشيوعية - عن طيب خاطر - اعطاء دول البلطيق الأخيرة، استقلالها لحماسها للفكرة القومية، وتوسيع حدود ست دول قوية أخرى هي: صربيا - يوغسلافيا لاحقاً، رومانيا، ايطاليا، اليونان، فرنسا، الدانمرك، وفصل المجر عن الأمبراطورية النمساوية. وبذلك زاد عدد الدول الأوروبية من ٢١ دولة في عام ١٩١٤ الى ٢٧ دولة عام ١٩٢٠ م.

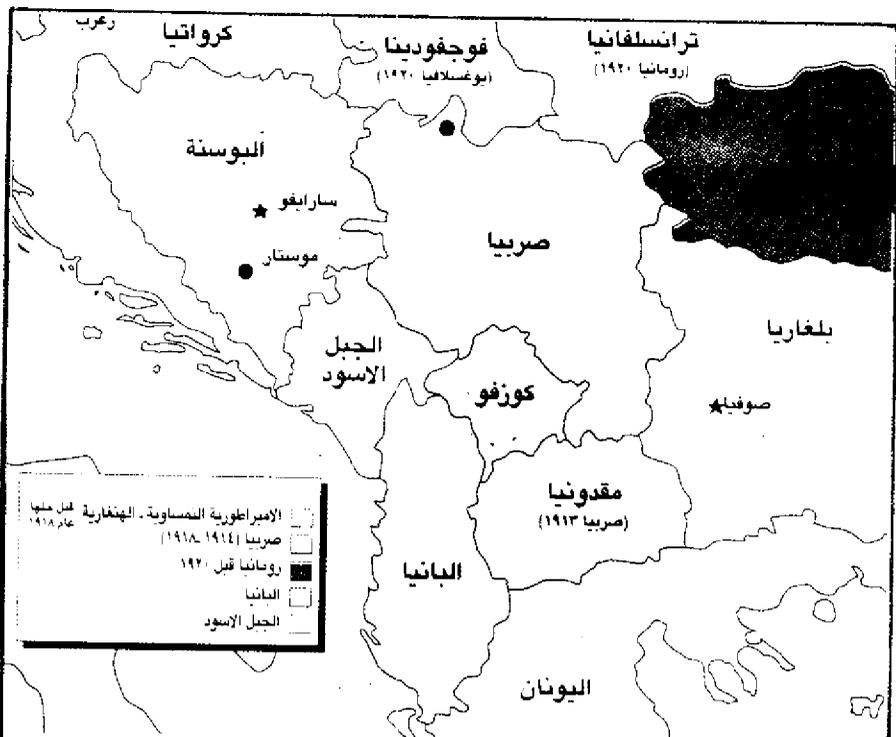
ولكن نجاح الفكرة القومية وانشاء الدول القومية، حفظ في طياته بذور مشاكل ما بين الحربين، لأن توزيع حدود الدول القومية، كان يتبع مشيئة المنتصرين... بفصل جميع أطراف (بلاد المغلوب) ولو خسر أقلييات من جنسه، ولم يخلُ تشكيل هذه الدول الجديدة من عناصر غريبة كانت سبب المشاكل من جديد، ضمت .. يوغسلافيا أقلييات ألمانية مجرية وبلغارية وغيرها.. (وهكذا في بقية الدول الجديدة)^(٦٩)



△ Monastère de Dečani

دير ديشاني

(٦٩) . انظر: العالم الحديث (ص ٦١٢ - ٦١٤).



الخريطة السياسية لجنوب شرق اوربا عشية الحرب العالمية الاولى



المشكلة القومية في (يوغسلافيا السابقة)

ان الأحداث التي جرت وتجري في ما سمي «يوغسلافيا» ليست جديدة وانما هي مشكلة قديمة، وتمتد للعصور الوسطى وان كانت مرحلة الحكم العثماني ساهمت في تباين القوميات التي تعيش في البلقان إلا ان العداء كان شبه مستمر بين المعتقدات الدينية وخاصة بين الصرب (الأرثوذكس) والكروات (الكاثوليك) ومما زاد في التنافر والعداء بين المذاهب محاربتهم للمسيحيين البوغوميل، ومن بعد ذلك للمسلمين، كل هذا أدى الى صراعات ذات طابع ديني وقومي وبخاصة فيما بين الحربيين العالميتين الأولى والثانية. ان بروز النظام الشيوعي الذي كان يعتبر الأمية هي الهدف الأسمى قافزا فوق القومية والاقليمية، نابذا المعتقدات الدينية.

فمنذ بروز الانظمة الشيوعية كحركة أصبحت المعبر عن فكرة التضامن مع الشعوب البلقانية ولكنها فشلت في القضاء على الخلافات والتناقضات والمنازعات التي تقشّت منذ الحلول التي فرضتها المعاهدات والتي لم تعط العامل القومي الأهمية وبقيت امور كثيرة دون حل وإن بقيت المواجهات كنار تحت رماد.

فالمسألة القومية في منطقة شبه جزيرة البلقان طال حلها لأكثر من قرن لأن أصحاب القرار لم يتوصلوا الى الحل المرغوب لانعدام التوافق بين الأصول الثلاثة وهي: الأمة والأرض والدولة.

ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر تجري منافسة حاسمة بين تيارين يدعوان لحل المسائل القومية والاقليمية في الجزء الغربي من شبه جزيرة البلقان: أولهما يقول «بصربيا العظمى» وثانيهما يدعو إلى «كرواتيا الكبرى» على حساب القوميات الأخرى وخاصة على حساب المسلمين في البوسنة والهرسك، وتحققت فكرة توحيد الصرب والكروات والسلوفينيين عام ١٩١٨ م (١٣٣٦ هـ) أي من سلاف الجنوب وأقاموا «مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين» وبها تحقق النصر على التجزئة قديمة الزمن لأراضي وشعوب «يوغسلافيا»، ولكن هذه المملكة تعرضت فوراً لمصاعب كبيرة لم تتمكن من التغلب عليها طيلة فترة تواجدها لأن تلك المصاعب في التناقضات كمنعت في المشكلة القومية^(٧٠).

يوغسلافيا والقومية السلافية

..دولة يوغسلافيا متعددة القوميات، تستند على مبادئ أساسيين:

أولاً - على فكرة الاتحادية المتساوية، عكس يوغسلافيا القديمة بين ١٩١٨ - ١٩٣٩ والتي نظمت على أساس وحدوي ومركزي فنرى دولة يوغسلافيا التي أوجدها تيتو تدع مكانا أساسيا للسيادة القومية لكل من الجمهوريات الشعبية، ومن بينها الجمهوريتان انهامتان: صربيا وكرواتيا - اللتان سيطر عداؤهما على تاريخ يوغسلافيا. أخذتا سيادة حقيقية.

ثانياً - هو الحكم الذاتي.. وقد نما في يوغسلافيا شكل جديد للدولة متعددة القوميات، فنشأ مفهوم جديد لهذه الدولة، استوحى منه دستور يوغسلافيا الاتحادية - سابقا^(٧١).

(٧٠) للمعرفة أكثر عن القضية القومية في «يوغسلافيا» أنظر: مجلة تاريخ العرب والعالم بقلم: د. لطفى المعوش - استاذ في الجامعة اللبنانية - العدد ١٣٩ ايلول وتشرين ١٩٩٢ م (ص ٧٩ - ٨٧).

..لقد كان القرن التاسع عشر عصر القوميات .. وان فكرة الدولة القومية، ذات نزعة عسكرية وقاسية، حتى على الصعيد الديني، قد تأكدت عبر أوروبا كلها.

فمنذ ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م تتصف هذه الفترة (بسياسة الانصهار والدمج، وهذا يعني الاضطهاد والقهر) أي تتنازل الجماعة البشرية المقصودة بالانصهار والدمج عن (صفاتها الأصلية، كاللغة والدين والحريات السياسية أو الادارية) وهذه حال الأقليات في البلقان..

..ان نزاع القوميات- يُغذَى بحجج لا تُستمد من الخصائص الخاصة للأقليات القومية فحسب، وانما أيضا من حجج مستمدة من التاريخ المفسر لصالح كل من الأطراف المتنازعة..

شبه جزيرة البلقان منطقة حساسة، ثائرة باستمرار، انها برميل بارود أوروبا، تهزها الحركات الثورية والحروب، وفيها- في اليوسنة وفي سراييفو عاصمتها - كان الحادث الذي أثار الحرب العالمية الأولى، وصفت هذه المنطقة بأنها «بركان» ونعتت بكل النعوت، وسميت «روماتيزم أوروبا» و«عقدة الافاعي» وأجريت بحقها كل المقارنات الممكنة، لاختلاف القوميات وتعددتها فيها.

في مناطق هذا الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا، وجدت معظم القوميات السلافية في عام ١٢٨٨ هـ ١٩١٤ م تحت السيطرة العثمانية... ثم كانت النمسا-هنغاريا إمبراطورية وعندها أقليات سلافية، وكانت تعتمد على ألمانيا الموحدة حديثا وتضع ثقلها في البلقان .. ولكنها اصطدمت بالأطماع الروسية نحو القسطنطينية والبحر الأسود.

ان طموحات وأطماع الدول الكبرى المتنافسة تتداخل في البلقان لتزيد

(٧١) - انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٤/ ٢٢٩ - ٢٣١).

من سعيير الفرقة بين القوميات، لفترة ١٢٨٨ - ١٣٣٣ هـ - ١٨٧١ - ١٩١٤ م ليست الا تنتمه لحوادث مأساوية لهذه الشعوب التي لم تعرف السلام أبدا. وقد أدى هذا الوضع في النهاية الى تجزئة الممتلكات العثمانية في البلقان وخلق أو توسع دول جديدة.^(٧٢).

في عام ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م انعقد في «فيوم»^(٧٣) مؤتمر لسلافي الجنوب، وطالب بالقربى الوثقى بين كل الجماعات من سلافي الجنوب. وبدىء باستئناف التعبير «يوغسلافي» للدلالة على جماعة واسعة تضم معا الكرواتيين وكل الصربيين - أي صربي كرواتيا والمجر ومملكة صربيا والبوسنة والهرسك، والدلماسيين والسلوفينيين..^(٧٤).

الأقليات في يوغسلافيا والقضية القومية

كانت يوغسلافيا فريسة القضية القومية، قضية الأقليات، والأقلية الأساسية فيها هي «كرواتيا» وفي الحقيقة أن الكرواتيين لهم دواعيهم في كره الصربيين. فهم كاثوليك على حين أن الصربيين أرثوذكس، ويستعملون الألف باء السيريلية.. وكانوا يشعرون مع هذا بعاطفة شديدة جداً باستقلالهم الذاتي.

وكان الكرواتيون يشعرون بعداء غير خفي حيال المزاعم الصربية للهيمنة ولما يسمّى «السياسة الصربية الكبرى» وعلى وجه الدقة تشكلت يوغسلافيا.. بشكل دولة مركزية وانتصر في ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م - حسب أمانى الصرب - المبدأ الذي يسمى «الاندماجية اليوغسلافية» وهذا يعني في الواقع «المركزية» وذلك بموجب القانون الدستوري في حزيران ١٩٢١ م الذي

(٧٢) - انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٤/ ٢٧٢ - ١٧٣).

(٧٣) - فيوم = ريبكا: مرفأ في كرواتيا على ساحل الادرياتيكي

(٧٤) - تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٤/ ١٦٩).

صوتت عليه الجمعية التأسيسية، ويلغى جميع الأقاليم القديمة، هذا التشكيل لم يرض الكرواتيين.. وقام زعيم حزب الفلاحين «راديك» عام ١٩١٨ م وكان مناوئاً جداً للصرب، واحتج شخصياً لدى رئيس الولايات المتحدة «ويلسون» ضد وجود الجيوش الصربية على الأرض الكرواتية. وفي عام ١٣٨٥ هـ ١٩٣٩ م أمكن التوصل الى اتفاق - بعد مفاوضات شاقة - ينص هذا الاتفاق على تعيين (بان) مستقل ذاتياً في كرواتيا.. ولكن الشعب الكرواتي عارض هذا الاتفاق، لأنه لا يتفق مع الأمن الوطني للبلد الذي ظلّ ضد الصرب.

وهكذا نرى .. «الإفلاس التام للتجربة الاندماجية.. في الدولة اليوغسلافية»، وقد تفاقمت قضية الأقليات^(٧٥). وقوميات يوغسلافيا كما يلي: صرب ٣٦٪ كروات ١٩٪ سلوفين ٨٪ مقدونيون ٦٪ ألبانيون ٨٪ صرب الجبل الأسود ٣٪ هنغار ٢٪ و ١٧٪ بشناق وأتراك مسلمون وقليل من اليهود والفجر^(٧٦).

إذا أردنا معرفة الأصول القديمة لهذه الأقليات، أو هذه القوميات، نرى أنها تندرج تحت قائمة الجماعة السلافية، ونلاحظ في هذه الجماعة وحدة الجنس أكثر من غيرها وفي الواقع، إن الصرب والكروات والبشناق والسلوفينيين، كلهم من جنس واحد، ولكننا نجد فيهم اختلافاً سياسياً كبيراً.

الهجرات السلافية

كان سلافيو الجنوب كتلا كثيرة مثل: الكتلة التركية (العثمانية)، وهي

(٧٥) - انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٢/ ١٩٩-٢٠١).

(٧٦) - انظر: دليل العالم/ عبد الرحمن حميدة وغيره ط ١٩٨٨ م - دار طلاس دمشق (ص ٤٩١-٤٩٣).

أكثر من غيرها، وفي هذه الكتلة نجد أن القسم الشمالي «باشوية بلغراد» كان له وضع خاص به، فقد بقيت فيه آثار من الاحتلال النمساوي في القرن السابع عشر، وفي النمسا - نفسها - توجد جماعة سلوفينية .. وفي هنغاريا (المجر) أيضا..

كانت الهجرات الصربية الآتية من الأرض العثمانية، تغذي السكان الصرب في هذه المنطقة التي حافظت على كنيستها الأرثوذكسية . وكان لها نظام عسكري خاص باعتبارها ثغرا أمام العثمانيين، وفي الأمبراطورية النمساوية التي أحاطت بها، أن، عامة سلافيا الجنوب تؤلف في الواقع نقطة اتصال حضارتين، شرقية وغربية،

الأولى من بيزنطة ثم من العثمانيين، والثانية، غربية وهكذا تعارضت في الجنس الواحد، حضارة أرثوذكسية تستعمل الحروف الابجدية الاغريقية السيريلية - أي الحروف السلافية التي تنسب الى القديس «سيريل» حواري السلافيين، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٩ م ولكن أصلها ما زال موضع جدل . وحضارة كاثوليكية، تستعمل الحروف اللاتينية وعلى صلة بالغرب، وتتضح أكثر الاختلافات الدينية والفكرية بهذا الانقسام السياسي. أما عاطفة الوحدة فلم تنطفيء مع ذلك^(٧٧) ..

السلاف والهنغار

لقد اجتاح السلاف شبه جزيرة البلقان في القرن السادس الميلادي، والهنغاريون الحوض البانوني، (الدانوب الأوسط) في القرن العاشر، واختلط هؤلاء ببعضهم، وانطلاقا من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، نلاحظ حركة هجرة سلافية وافدة من الجنوب لتعزز العنصر السلافي الموجود في حوض الدانوب الأوسط، وكانت هذه الهجرة بعد سقوط القسطنطينية عام

(٧٧) . انظر: تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٢ / ٢٩١ - ٢٩٢).

٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م، واحتلال صربيا ٨٦٣ هـ - ١٤٥٩ م والبوسنة ٨٦٧ هـ - ١٤٦٣ م والهرسك ٨٧٧ هـ - ١٤٨٢ م وكلما صعد العثمانيين الى الشمال، أصبحت هنغاريا الجنوبية ملجأ للنبلاء والفلاحين الصرب،

كانت بلغراد آنذاك حصنا أماميا للدولة العثمانية أمام العالم المسيحي، وتزايد الضغط العثماني في القرن السادس عشر، واجتاز الجيش العثماني نهر «الساف» ونهر «الدانوب» واحتل هنغاريا الجنوبية، وتوج ذلك بنصر «موهاكس»^(٧٨). عام ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م، وأصبحت «بودابست» عاصمة المجر. في ٩٤٨ هـ - ١٥٤١ م حصنا عثمانيا اسلاميا، ومنذئذ لعبت النمسا دور بلاد الثغور حيال العالم الاسلامي.^(٧٩) ..

موقف الأمبراطورية النمساوية من الأقليات

كانت الأمبراطورية النمساوية - المجرية كالامبراطورية العثمانية اشبه برقعة شطرنج أو لوحة الموزاييك، تجمع في كل رقعة صغيرة شعب وقومية ولغة ودين، يربطه بالتاج الأمبراطوري رباط الخضوع، أيام كان للتاج قوته وجيشه وادارته، ولكن نمو الروح القومية في القرن التاسع عشر، أخذت تهدد شبكة هذا الرباط بالتقطيع، وإذا نجحت بعض القوميات بالتوصل الى شيء من الاستقلال الذاتي، فأن انفلات القوميات عن حدود الامبراطورية لم يتم الا عقب الحرب العالمية الأولى، وكانت النمسا تضم: (اثني عشر مليون

(٧٨) - موهاكس أو موهاج MOHACS: مدينة هنغارية على نهر الدانوب، قرب الحدود اليوغسلافية الشمالية انتصر فيها السلطان «سليمان القانوني على ملك هنغاريا «فرانسوا» عام ١٥٢٦ م (ذو القعدة ٩٣٢ هـ) - انظر: فن الحرب الاسلامي في العهد العثماني (١٢٨ / ٥ - ١٢٩).

(٧٩) - انظر تاريخ الحركات القومية في أوروبا (٤ / ٢٨٤).

ألماني وعشرة ملايين مجري وثمانية ملايين ونصف تشيكي وخمسة ملايين ونصف صربي وكرواتي وخمسة ملايين بولوني وأربعة ملايين روثيني وثلاثة ملايين روماني ومليون ونصف سلوفيني ومليون إيطالي... على أن، الجيش النمساوي الذي كان يربط بين هذه القوميات... تحطم في الحرب العالمية الأولى، فتفككت الإمبراطورية، وولدت من أجزائها عدة دول^(٨٠).



(٨٠) - انظر: العالم الحديث (ص ٢٠٩ - ٢١٠).

العلاقات الدولية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى

كانت دول البلقان الجديدة كل واحدة تتنازع مع الأخرى تلبية لمطامحها في السيطرة «بلاد الصرب وبلغاريا، حول مقدونيا، رومانيا وبلغاريا حول دوبرجا»^(٨١) رومانيا والنمسا - المجر حول ترانسلفانيا. لكن أعظم النزاعات وقعت بين بلاد الصرب والنمسا - المجر..

بسبب دعم الصربيين الأعمال الإرهابية التي يقوم بها السلافيون في الامبراطورية، جرت في البوسنة والهرسك - وهي تضم الكرواتيين والصرب والسلوفينيين والمسلمون أخطر الحوادث، حاولت صربيا الحصول على منفذ على البحر الادرياتيكي، ولكن النمسا - المجر قاومت محاولات الصرب لذلك وشجعت على قيام دولة ألبانيا عام ١٢٢٠ هـ ١٩١٢ م^(٨٢)..

اتسمت هذه المرحلة بقوة ألمانيا وضعف فرنسا وعدم اكتراث بريطانيا.. ولكن الاحتكاك المستمر بين روسيا والنمسا بشأن الشرق الأدنى حتم على

(٨١) - دوبرجا: اقليم في جنوب رومانيا، ما بين الدانوب والبحر الأسود.. كانت دوبرجا من أسباب القلاقل في البلقان.. عام ١٩٤٠ م تنازلت رومانيا عن جنوب دوبرجا الى بلغاريا بتدخل ألمانيا اذ يشتمل على أكثرية بلغارية انظر: القاموس السياسي أحمد عطية الله/ دار النهضة العربية، القاهرة ط٣، ١٩٦٨ م (ص ٥٣١).

(٨٢) - بهجة المعرفة - المجموعة الثانية (مجموعة ٣- ٢١٧/٥).

دول أوروبا الأخرى أن تشكل تحالفاً فيما بينها وتكتلات جعلت جو أوروبا مشحوناً بالترقب والحذر من هبوب العاصفة وازدياد احتمال وقوع الكارثة ونشوب الحرب^(٨٣).

البلقان قبل الحرب العالمية الأولى

شكلت البلقان في بداية القرن العشرين مسرح الصراع العالمي. وكان للدول الأوروبية مصالح عسكرية واقتصادية وسياسية متضاربة..

وكانت نقطة التحول باتجاه التحرر السياسي والاقتصادي قد بدأت في بلاد اليوغسلاف وكان عام «١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م» هو العلامة المميزة، فقوى كرواتيا السياسية. بدأت تنظم نفسها ضد السيطرة المجرية، وظهر استياء مشابه في البوسنة.

وتهيأت السبل لسياسة حركة قومية أجنبية «تحت حكم بطرس الأول - قره جورج فتش» فأدى ذلك لاغتيال ملك صربيا «اسكندر أوبرنوفتش»

وبرزت في مقدونيا عام ١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م - أيضاً - حركة استقلالية، أما في كرواتيا ودالماسيا، فقد قامت الأحزاب السياسية بائتلاف ووضع برنامج للوحدة اليوغسلافية، ولإصلاحات سياسية واجتماعية. وأرسلت كل من صربيا والجبل الأسود دعماً لحركة مقدونيا وبدأت تجمع قواتها، كما بدأت دول البلقان بالتسلح وشراء المدافع والذخيرة من دول أوروبا.^(٨٤)..

(٨٣) - لزيادة الاطلاع عن العلاقات الدولية آنذاك انظر: موسوعة تاريخ العالم / همرتون، تعريب: ادارة الثقافة والنشر في وزارة الارشاد في جمهورية مصر العربية القاهرة (٦ أجزاء) بدون تاريخ (ص ١٩١١ - ١٩٢٢).

(٨٤) - انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٥٣ - ٢٥٦).

حوادث ومشاريع:

ابتدأ الصراع الدبلوماسي بين دول أوروبا من أجل مشروع سكة حديد البلقان، وغيرها وعبرت مشاريع السكك الحديدية عن النزعة السياسية للدول الأوروبية المتصارعة، وخطط الروس والصرب للوصول الى البحر الأدرياتيكي، والنمسا اندفعت باتجاه، بحرايجه بتبني مشروع سكة حديد «نوفي بازار» ولربطها بساحل اليونان، وأخيرا لاتخفى جهود اليونان والبلغار لابتلاع وسط مقدونيا، وفي هذه الأثناء تمرت الحامية العثمانية في مدينة «سالونيك» في «جمادى الأولى ١٣٢٦ هـ حزيران ١٩٠٨ م بتحريض من حزب «تركيا الفتاة»^(٨٥).

واضطر السلطان «عبد الحميد الثاني»^(٨٦) لإعلان الدستور، وأراد الاتحاديون حكماً يمنح الحرية والمساواة لكافة القوميات داخل السلطنة.

وانتهز البلغار.. الفوضى، وأعلنوا استقلالهم التام في ٥ تشرين الأول ١٩٠٨ م (رمضان ١٣٢٦ هـ) وفي اليوم التالي أعلنت امبراطورية النمسا - المجر ضم البوسنة والهرسك.. وانهاء النظام السياسي الذي أقامه وأقره مؤتمر برلين، وكان أهم الحوادث، ماجرى في البوسنة والهرسك، فقد احتج الصربيون بعنف لضم البوسنة والهرسك .. وعارضت انكلترا النمسا على

(٨٥) - تركيا الفتاة: حزب نادى من أجل احياء ودعم القومية الطورانية - وهو أحد

وجوه «جمعية الاتحاد والترقي» (الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ص ٢٤٧).

(٨٦) عبد الحميد الثاني: سلطان عثماني ١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ و ١٨٧٦ - ١٩٠٩ م،

تولى الحكم بعد خلع أخيه السلطان «مراد بن عبد الحميد» في ١٨ شعبان ١٢٩٣

هـ ٦ أيلول ١٨٧٦ م، وحكم السلطان عبد الحميد أكثر من ثلث قرن ونادى

بالجامعة الاسلامية، ثم تم خلعها (بانقلاب قام به رجال الاتحاد والترقي) في

ربيع الأول ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م. انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٥٣ - ٢٥٦)

انظر في الملاحق دور اليهود في ثورة ١٩٠٨ م وخلق السلطان عبد الحميد

عام ١٩٠٩ م.

هذا الإجراء. ودعم الروس صربيا وبلغاريا ووضعت تسوية سلمية للتعويض عن الأضرار بين النمسا والدولة العثمانية.. ودفع النمساويين بموجبها تعويضاً للدولة العثمانية.

ولكن الصراع النمساوي الصربي جزأ أوروبا إلى حافة الحرب، وأجبر الضغط الموجه من قبل برلين في «أذار ١٩٠٩ م و (١٣٢٧ هـ)» - الروس على الموافقة. وحدث صربيا حذو روسيا، وقبلت بضم البوسنة والهرسك من قبل النمسا والمجر، وألقت حوادث ١٩٠٨ - ١٩٠٩ م و (١٣٢٦ - ١٣٢٧ هـ) بظلالها السوداء على الحوادث المقبلة^(٨٧)

أهمية سنجق نوفي بازار: «السوق الجديدة»

تعتبر منطقة السنجق أساسية، أو كما يقال «منطقة مفتاح»، ونوفي بازار، مركز السنجق وهي مدينة صغيرة تحتل موقعا استراتيجيا، لأنها تسيطر على الممر الذي يصل مقدونيا بالبوسنة.

مساحة السنجق (٧٠٠٠ كم^٢) تقريبا ويسكنها الآن أكثر من (١٥٠,٠٠٠) نسمة، والمسلمون يشكلون ٧٥٪ من السكان، ولأهمية السنجق، قامت النمسا باحتلاله في عام ١٨٧٨ م (١٢٩٧ هـ)، أي في الوقت الذي احتلت فيه البوسنة والهرسك، وفي عام ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) عاد جزء منه إلى الامبراطورية العثمانية ..

في عام ١٩٠٧ م (١٣٢٥ هـ) كانت النمسا تحاول اقامة علاقات مع سالونيك (اليونان) والبحر المتوسط الشرقي، كما حاولت القيام بمفاوضات مع الامبراطورية العثمانية بغية الحصول على امتياز لخط حديدي ينطلق من البوسنة - التي ضمتها فيما بعد - ويرتبط بالخط الشمالي - الجنوبي الكبير

(٨٧) انظر المصدر السابق (ص ٢٥٣ - ٢٥٩).

بلغراد - سالونيك، ويمر من «نوفي بازار»، دون أن يمر من الأراضي الصربية. (إن أهمية سنجق نوفي بازار - لم تكن لتقل، بل ازدادت وبخاصة هذه الأوقات حيث تسيطر عليه صربيا وأكثرية سكانه من المسلمين الذين يعيشون في ظروف صعبة، حيث كبت الحريات والتحرشات الدائمة بسكانه المسلمين الذين يطالبون بالانضمام إلى إخوانهم في البوسنة؛ ولكن هيئات أن يستطيعوا ذلك، مادام الحق الصربي والتسلط اللاإنساني.)^(٨٨)

حروب البلقان

ظلت الحركات المناوئة للعثمانيين وكذلك - الحركات الانفصالية - تتوالى في شبه جزيرة البلقان وفي ذلك الوقت جرى خلع السلطان «عبد الحميد الثاني» وتسلم الاتحاديون السلطة - ولا يخفى أن اليهودية العالمية وراء ما حدث - وكان الوضع المتأزم في البلقان مستمراً، وتحالف البلقانيون ضد الدولة العثمانية، فاتفق البلغار واليونان ثم الجبل الأسود، وبدأت الحشود العسكرية، ثم الهجوم المعلن.

الحرب الأولى، ١٣٣٠ - ١٣٣١ هـ - ١٩١٢ - ١٩١٣ م

.. بدأت الحشود العسكرية البلقانية، وقدمت مذكرة الى الباب العالي تطلب منح السكان النصارى الحق في الحكم الاداري الذاتي، ورفضت الدولة العثمانية الطلب وكان ذلك الرفض السبب في إعلان الحرب^(٨٩)

.. أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية عام «١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م» ووقف بجانبه أعضاء التحالف البلقاني: صربيا وبلغاريا واليونان. وتمكنوا من إحراز النصر على العثمانيين، واستعملوا الطائرات لأول مرة

(٨٨) تاريخ الحركات القومية (٤/ ٢٧٩).

(٨٩) انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٥٣ - ٢٥٩).

في هذه الحرب، وقصفوا مدينة «أدرنة»، وفقدت الدولة العثمانية معظم أراضيها في أوروبا، وبعد وقف القتال جرى الاتفاق على استقلال ألبانيا، وقسمت الأراضي الباقية - التي كانت للعثمانيين - بين أعضاء التحالف البلقاني، وعرفت هذه الحرب، باسم «حرب البلقان الأولى»^(٩٠).

الحرب الثانية ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م

.. لم يلبث أعضاء التحالف البلقاني أن اختلفوا على تقسيم التركة التي حصلوا عليها وتنازعوا حول سيادة بلغاريا على مقدونيا، وقد أصرت بلغاريا على ذلك، ووقفت في وجه كل من رومانيا والصرب واليونان، ووقعت الحرب في عام «١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م، فانضم العثمانيون في بهذه الحرب ضد البلغار، وحصلوا من البلغار على جزء مما خسروه في الحرب العالمية الأولى، إذ ضموا اليهم «تراقيا»^(٩١). بما فيها مدينة «أدرنة»، نتيجة لمعاهدة «لندن» عام ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م وعرفت هذه الحرب باسم «حرب البلقان الثانية»^(٩٢).

حروب البلقان وأثرها:

لم تتعد هاتان الحربان، حدود البلقان وإن كادتتا تشركان دول أوروبا قيهما، لكنهما أثرتا في تأزّم الموقف الدولي الذي سبق الحرب العالمية الأولى، ووضّحتا انقسام كل دولة إلى أحد المعسكرين، فالنمسا ومن ورائها ألمانيا أيدتا - علنياً - حكومة الاتحاديين، وكانت ألمانيا منذ عهد عبد الحميد» ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م قد نشرت نفوذها على الدولة العثمانية ونالت امتياز مد

(٩٠) انظر: التاريخ الاسلامي - العهد العثماني - (ص ٢١٤ - ٢١٥).

(٩١) تراقيا: منطقة قديمة في جنوب شرقي أوروبا، هي اليوم قسمان: غربي يتبع اليونان وشرقي يكون القطاع الأوربي من تركيا، بين المضائق وبحر مرمرة، أهم مدنه استانبول على القرن الذهبي. (المنجد في الأعلام ط ١٦ ص ١٧٠).

(٩٢) انظر: التاريخ الإسلامي - العهد العثماني (ص ٢١٦).

سكة حديد بغداد ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م وارتمى الاتحاديون في أحضان دولتي الوسط، لأنهم لم يأمنوا دول التحالف الثلاثي (انكلترا، فرنسا، روسيا)، فانكلترا تطمع في ضم مصر الى امبراطوريتها، وفرنسا تطالب بمد نفوذها على سوريا ولبنان، وروسيا لاتزال تحلم بالاستيلاء على المضائق.. هذا إلى أن العداء بين النمسا والصرب قد استحكماً جداً، لوقوف النمسا في وجه توسع صربيا نحو البحر الادرياتيكي، كما أن الجبل الأسود لم يرض عن نتائج حروب البلقان لعدم حصوله على مدينة «اشقودرة» التي احتلها جيشه، وبلغاريا من جهتها حنقت على جميع الدول البلقانية التي انتصرت عليها حيث خلصتها بعض أراضيها بدل أن تتوسع وتكبر، فانحازت إلى النمسا في الحرب العالمية الأولى مع انضمام دول البلقان إلى الحلفاء^(٩٣).

العثمانيون والبلقان والحرب العالمية الأولى

ان المشكلات القومية التي زرعتها أوروبا في جسم البلقان والتي استخدمتها في فصل تلك البلاد عن الدولة العثمانية، هي المشكلات ذاتها التي أدت إلى نشوب الصراع بين دول البلقان التي تأسست بعد زوال حكم العثمانيين، وهي - أيضاً - التي كانت من أسباب تفجير الحرب العالمية الأولى. ان تحطيم النظام التقليدي، الذي ساد أوساط الجماهير الصربية الجنوبية، كان عاملاً في إنكفاء نار تلك الحركات واندفعت الأعداد الغفيرة من جموع أبناء الفلاحين للانخراط في صفوف المنظمات الثورية.. ورنّت الأبصار الى رجال العصابات كي تعمل شيئاً. ان النجاح الذي تحقق بعد أفول نجم الخلافة العثمانية هناك، والذي قاده دعاة الأفكار القومية، سرعان ماحرك الأطماع القومية الصربية الشديدة الاندفاع.

(٩٣) العالم الحديث (ص ٣٦٢).

اغتيال ولي عهد النمسا:

في ٢٩ أو ٣٠ صفر ١٣١٨ هـ - ٢٨ حزيران ١٩٠٠ م، تزوج الأرشيدوق النمساوي «فرانسوا فرديناند» من الكونتيسة «صوفيا شونيك» وسط جومن الكآبة والغم، فالعريس ولي العهد للإمبراطورية النمساوية من آل هابسبورغ .. أما العروس فكانت - مجردة - كونتيسة... وفي عام ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م قرر الأرشيدوق ولي عهد النمسا وزوجته القيام بجولة تفتيشية عسكرية - بمناسبة عيد زواجهما - في البوسنة، وسار الموكب - الذي يضم ولي العهد وزوجته - عبر الشارع الرئيسي في مدينة «سراجيفو» - عاصمة البوسنة والهرسك - فألقيت عليهما قنبلة من قبل أحد الطلاب.. ولكن المحاولة فشلت، وتابع الموكب طريقه - وكان إهانة لشخص ولي عهد النمسا - فقرر مغادرة المدينة، وفي أحد المنعطفات، قام الطالب «غافريلو برنسيب» وقفز إلى العربة الأمبراطورية وصرع ولي عهد النمسا وزوجته بطلقة واحدة، وهكذا تم اغتيال ولي عهد النمسا..

لقد شعر الموظفون النمساويون أن عليهم أن يصفوا حسابهم مع صربيا وفشلت التحقيقات الأولى في الكشف عن دليل مقنع محدد يثبت ارتباط الحكومة الصربية بعملية الاغتيال.. ودبّ الذعر في قادة أوروبا. وأرسلت حكومة هابسبورغ، تطلب القضاء على المنظمات القومية في صربيا، ومعاقبة المسؤولين عن تنظيم الاغتيال، وأعلنت الحرب ضدّ صربيا في ٥ رمضان ١٣٣٢ هـ و ٢٨ تموز ١٩١٤ م، بعد حادث الاغتيال بشهر واحد فقط.

وسيطر التحالف الأوروبي، خلال أسبوع واحد فقط، ووقفت روسيا وفرنسا وبريطانيا إلى جانب صربيا، ضد ألمانيا وإمبراطورية النمسا - المجر. وخططت النمسا لسحق صربيا ولكن تدخل الروس ودخولهم الحرب، قلب الخطط النمساوية رأساً على عقب. فعلى القوات النمساوية الآن التوجه إلى الجبهة الروسية. وبعد عدة اشتباكات عند حدود جبهات ما قبل الحرب، توقف القتال. وأظهرت حدة العداء نشاطاً دبلوماسياً وعسكرياً محموداً في كل

مكان من البلقان. ومن غير إبطاء، أعلن الحلفاء^(٩٤) الحرب ضد العثمانيين في محرم ١٣٣٢هـ - كانون الأول ١٩١٤م.

وهرعت كل من قوى الحلفاء^(٩٥) والمحور، لخطب ودّ دول البلقان، وابتدأت المساومات وأرادت بلغاريا الجزء من الأراضي الذي ألحق بالصرب واليونان من ترافيا ومقدونيا بعد حرب البلقان الثانية، وأرادت رومانيا جزءاً من «ترانسلفانيا» - وهي من رومانيا الوسطى - والأقاليم المجاورة.. من أراضي هبسبورغ. أما اليونان فإن أطماعها تركزت على الأناضول وعلى امتلاك العاصمة، «استانبول»، وكانت دول المحور قادرة على إعطاء وعد لتلبية معظم رغبات البلقان، فصربيا - بنظرهم - ستكون الخاسر الرئيسي، وكان الحلفاء قادرين - أيضاً - على تهدئة شره رومانيا، وبقيت مطامع اليونان هي العقبة الكأداء، فروسيا تتوق لاحتلال «استانبول»، أيضاً .

وأينعت جهود الحلفاء والمحور في تكتيل دول البلقان ببطء شديد امتد حتى عام ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، وكان البلقان أول من بدأ الدخول فهي حلبة الصراع بالتحالف مع المحور عام ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م، وبدا تغير الوضع الاستراتيجي لدرجة كبيرة في البلقان.

وكان أول تحرك عسكري هو ما قام به الانكليز. ففي ربيع الأول أو الثاني ١٣٣٣هـ - شباط ١٩١٥م، ضرب الاسطول الملكي البريطاني القلاع العثمانية في الدردنيل، وحاولت بعد شهر السفن الحربية البريطانية شق طريقها عبر

(٩٤) انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٦٣ - ٢٦٧).

(٩٥) الحلفاء ALLIES: تعبير يطلق على الدول التي حاربت دول وسط أوروبا في الحرب العالمية الأولى ودول المحور في الحرب العالمية الثانية، وأهم دول الحلفاء في هاتين الحربين: بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية، روسيا. م . المورد العربية ج ١ (ص ٤٤٥) المحور: ألمانيا، المجر، النمسا، والامبراطورية العثمانية (المرجع السابق ص ٢١٦).

المضائق، ونزلت في ٢٥ نيسان ١٩١٥ م (١٠ جمادى الآخرة ١٣٣٣ هـ) على الجانب الأوربي من غاليبولي، كي تقضي على الدفاعات العثمانية، وتفتح الطريق الى استانبول أمام الأسطول. وكان العثمانيون قادرين على إيقاف التقدم قبل أن يتمكن من تحقيق نصر استراتيجي^(٩٦).

وكان التحرك الثاني من ايطاليا، فعلى الرغم من التحالف الدفاعي مع ألمانيا والنمسا والمجر، فإن الحكومة الايطالية بقيت على الحياد طيلة عام (١٣٣٢ هـ) - ١٩١٤ م.

ورغب القوميون الايطاليون بضم دالماسيا^(٩٧) ومقاطعات نمساوية أخرى إلى بلادهم.

ورغم الممانعات الصربية فقد وافق الحلفاء على معظم المطالب الايطالية في معاهدة «لندن» السرية؛ وفتحوا جبهة جديدة ضد النمسا في الألب. وعبرت قوات ايطالية بحر الأدرياتيك واحتلت ألبانيا. وأتت أخيراً -المساعدات الفرنسية والبريطانية للحكومة الصربية.. وتمكن الحلفاء في النهاية - من قصف القصر الملكي في أثينا - عاصمة اليونان - وإجبار الملك قسطنطين على التنازل عن العرش في ١٢ حزيران ١٩١٧ م (١٣٢٥ هـ)، ثم نفى^(٩٨).

أسباب الحرب العالمية الأولى:

كانت الحرب العالمية الأولى... تعرف أيضاً بالحرب الكبرى

(٩٦) انظر: العثمانيون والبلقان (٢٦٣ - ٢٦٧).

(٩٧) دالماسيا: منطقة ساحلية على الأدرياتيكى - الآن - في جمهورية كرواتيا من مدنها: سبليت، زادار، دوبروفنيك (لؤلؤة الادرياتيكى)، ريباكا، وتنتشر تجاه دالماسيا نحو: ٦٠٠ جزيرة، منها خمسون جزيرة مأهولة (المنجد في الأعلام ط ١٦ ص ٢٤٥).

(٩٨) العثمانيون والبلقان (ص ٢٦٣ - ٢٦٧).

حتى نشوب حرب ١٩٣٩ م، وأسبابها عديدة منها: نزعة ألمانيا الى التوسع والاستعمار، ظهور تحالفات جديدة في أوروبا قلبت المواقف، أهمها بين انكلترا وفرنسا، حروب البلقان و بروز القوميات فيه ونضال شعوبه لنيل الاستقلال من بداية انحلال الامبراطورية العثمانية، حركة تركيا الفتاة، تنافس روسيا مع النمسا - المجر - في حماية الأقليات، أما السبب المباشر، فكان اغتيال الارشيدوق «فرانسوا فرديناند» - ولي عهد النمسا.

.. اشتعلت الحرب في جميع أنحاء أوروبا وشملت بحار العالم، - اشتهرت بحرب الخنادق. وامتدت الى تركيا والشرق^(٩٩) وقامت الثورة العربية^(١٠٠).

نتائجها:

أدت (هذه الحرب) الى اندحار ألمانيا وخسارتها مستعمراتها في افريقيا وتخليها عن (الألزاس واللورين)^(١٠١)، وتفكك امبراطورية النمسا - المجر، وظهور دول جديدة في أوروبا الوسطى، وزوال الامبراطورية العثمانية، وانشاء عصبة الأمم.

اشترك فيها (٦٥) خمس وستون مليون مجند، القتلى نحو تسعة ملايين من العسكريين.. وقدر عدد الضحايا من المدنيين بعشرة ملايين عدا المشوهين^(١٠٢).

(٩٩) انظر: المنجد في الأعلام ط ١٦ (ص ٢١٦).
(١٠٠) الثورة العربية: ١٩١٦ - ١٩١٧ م (١٣٣٥ - ١٣٣٦ هـ) قام بها الشريف حسين بن علي وابنه فيصل ضد الحكم العثماني، انطلقت من المدينة المنورة وساندتها جيوش الحلفاء فبلغت فلسطين وسورية وحررت الحجاز والاعتراف بالحسين ملكاً عليه (المنجد في الأعلام ط ١٦ ص ١٩٢).
(١٠١) الألزاس واللورين: يشكلان منطقة واسعة استولت عليها ألمانيا عام ١٨٧١ م واستعادتها فرنسا في الحرب العالمية الأولى (المنجد ص ٦٣).
(١٠٢) انظر المرجع نفسه (ص ٤٦٧).

.. سارت الحرب بين الحلفاء وألمانيا وتركيا في جميع الجبهات، في الشرق وأوروبا، ولكنها كانت في النهاية، الهزيمة لتركيا، وسلب منها كل ما كان تحت ظل الدولة العثمانية..

.. وعلى ظهر الباخرة الانكليزية «اغامنون»^(١٠٣)، التقى مسؤولون أتراك وأنكليز ووضعت شروط للهدنة، وأعلنت الدولة استسلامها.

كان الاتحاديون أثناء حكمهم القصير الذي لا يتجاوز عدة سنوات، قد أضاعوا كل أجزاء الدولة في أوروبا، إذ استقلت أمارة بلغاريا، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك وأخذت اليونان جزيرة «كريت»^(١٠٤)... واحتلت إيطاليا ليبيا وبعض جزر المتوسط.. ومع هذا، فقد سيطرت الفكرة القومية التركية أو الأفكار الطورانية^(١٠٥).

(١٠٣) اغامنون: اسم أحد ملوك اليونان في حصار «طرودة» وسميت الباخرة باسمه انظر: المرجع السابق نفسه (ص ٥٣) وطرودة أو اليون Troie مدينة قديمة في تركيا.. خربتها حروب وزلازل عديدة، أشهرها حرب اسطورية قام بها اليونانيين وحاصروها «١١٩٣ - ١١٨٤ ق م» ذكرت في الياذة هوميروس انظر: المرجع السابق (ص ٣٥٦).

(١٠٤) كريت Gret أطلق عليها العرب اقريطش جزيرة يونانية في المتوسط ٣٣٦ / ٨ كم^٢ (٥٠٠,٠٠٠ نسمة) عاصمتها خانيا.. تنازعها العرب والبيزنطيون (المنجد في الأعلام ط ١٦ ص ٤٦٢).

وصل المسلمون إلى كريت قبل منتصف القرن الأول الهجري ولم يتمكنوا من فتحها.. وفي عام ٢١ هـ ٨٢٥ م وصلت جماعة من الأندلس بقيادة عمر بن عيسى على ظهر أربعين سفينة. وتم فتح الجزيرة وحكمها من قبل المسلمين حتى ٣٥٠ هـ ٩٦١ م، وعاد الروم اليها.. واتصل أهلها المسلمون بالعثمانيين الذين فتحوا الجزيرة ١٠٨٠ هـ ١٦٦٩ م ودخل كثير من أهلها بالاسلام حتى أصبح نصف سكانها من المسلمين.. وبعد ضعف العثمانيين حكمتها اليونان فأجبر قسم من المسلمين على الهجرة، وتكاد تخلو منهم اليوم.. انظر: المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية (ص ١٨ - ٢١).

(١٠٥) انظر: التاريخ الاسلامي - العهد العثماني - (ص ٢١٧ - ٢٢٣).

العثمانيون والبلقان بعد انتهاء الحرب

انتهت الأعمال العسكرية التي اكتنفت ربوع البلقان في ٢٣ ذو الحجة ١٣٢٧ هـ و ٣٠ أيلول ١٩١٨ وقبل البلغار الهدنة وكذلك الدولة العثمانية قبلت شروط الهدنة في ٣٠ تشرين الأول (أي بعد انتهاء الأعمال العسكرية)، وكان من شروط الهدنة السماح للقوات البريطانية بالتقدم عبر الدردنيل واحتلال العاصمة العثمانية الاستانة

وفي هذه الظروف، انعقد المجلس الوطني القومي للكروات والسلوفينيين في زغرب^(١٠٦). وأعلن استقلال «يوغسلافيا» في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٨ (٢٣ محرم ١٣٢٧ هـ) ويعني الاستقلال الأراضي التي يسكنها السلاف الجنوبيون. وقبل الوصول الى تسوية مع الصرب جرى اتفاق مبدئي في «جنيف»^(١٠٧). «مالبث أن رفض وانتهك جزئياً، وانهار مجلس زغرب وأعلنت «ملكة يوغسلافيا التي تضم: الصرب والكروات والسلوفينيين، واختاروا

(١٠٦) زغرب ZAGREB: عاصمة كرواتيا على نهر «سافا».

(١٠٧) جنيف geneva: مدينة سويسرية تقع في الجزء الجنوبي الغربي منها، وعلى الطرف الجنوبي من بحيرة «ليمان»، وردت إليها أولى الاشارات في القرن الأول قبل الميلاد، ولكن ثمة قرائن تدل على انها استوطنت قبل ذلك ببضعة قرون. كانت في سائين الحريين العائمتين الأولى والثانية مقر «عصبة الأمم»، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية، المركز الأوربي للأمم المتحدة سكانها (٢٠٠.٠٠٠ نسمة) م. المورد العربية ج ١ (ص ٣٩٩).

«بلغراد» عاصمة لها، ثم جرى انقلاب سياسي في الجبل الأسود وُخِع أميرها، واندمجت في كيان الدولة الصربية الجنوبية الجديدة، وبقيت بعض المشكلات دون تسوية، مثل قضية الصرب والكروات^(١٠٨).

مؤتمر السلم ونتائجه:

انتهت الحرب العالمية الأولى وانعقد مؤتمر السلم في باريس ١٨ كانون ثاني ١٩١٩ م « (١٥ ربيع الآخر ١٣٣٧ هـ)، وأقر معاهدات منفصلة لكل دولة انهزمت في الحرب الأولى: معاهدة «سان جيرمن» ومعاهدة تريانون» ومعاهدة سيفر^(١٠٩) التي وقعت في ١٠ آب ١٩٢٠ م (ذو العقدة ١٣٣٨ هـ)، وبها تنازلت تركيا عن أراض كثيرة، كما سوت هذه المعاهدة عديدا من المشكلات البلقانية، ولكن سياسة تقرير المصير للقوميات المختلفة التي

(١٠٨) انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٦٤ - ٢٧١).

(١٠٩) معاهدة سان جيرمن: عقدت في إحدى ضواحي باريس ضاحية سان جيرمن بُعيد انقضاء الحرب العالمية الأولى بين الحلفاء وجمهورية النمسا الفتية في «١٠ سبتمبر» (أيلول) ١٩١٩ م (ذو الحجة ١٣٣٨ هـ)، بموجبها حلت مملكة النمسا - المجر الثنائية واعترف باستقلال هنغاريا (المجر) وبولندا ويوغسلافيا، انظر: موسوعة المورد العربية (م ١ ص ٥٩٨)

- معاهدة تريانون: تحمل اسم المكان الذي وقعت فيه وهو قصر تريانون بحدائق فرساي في ضواحي باريس، عقدت بين حلفاء الحرب الأولى (باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والمجر) وقعت في ٤ يونيو حزيران ١٩٢٠ (رمضان ١٣٣٨ هـ) وقضت باستيلاء رومانيا على الجزء الأكبر من ترانسلفانيا وأقليم بنات واستولت يوغسلافيا على إقليم كرواتيا وسلوفينيا وبذلك فقدت المجر منفذاً لها على البحر الأدرياتي وفقدت نحو ثلث مساحتها، وضم سلوفاكيا وروثينيا الى تشيكوسلوفاكيا انظر: القاموس السياسي أحمد عطية الله، ط ٢، دار النهضة العربية القاهرة، ص ٢٨٨

- معاهدة سيفر: باسم مدينة سيفر الفرنسية على السين ضاحية باريس (المنجد ص ٣٢١)

تعاني من مشكلات مختلفة، عانت صعوبات جمة.

شاركت الأقليات التركية والتتارية الاسلامية القاطنة على طول الساحل الروماني والبلغاري على البحر الأسود في اقرار الوضع.. واختلفت أوضاع القوميات البلقانية إلى درجة كبيرة.. وقام المنتصرون في الحرب بصب جام غضبهم على المهزومين، وأخذ الانتقام ينتشر وينصب الحقد على الأقليات التركية والمجرية والايطالية التي خضعت لتمييز (كبير)، لذلك كانت أوضاع البلقان الجنوبية في سني مابعد الحرب الأولى من أكثر المشكلات تعقيداً^(١١٠)

فالحركة القومية التي تزعمها «مصطفى كمال أتاتورك»^(١١١)، رفضت بنود معاهدة «سيفر» التي فرضت بتخلي تركيا عن كثير من ممتلكاتها، وهاجم اليونانيون - الذين أغرتهم شهوة التوسع - البر التركي في الأناضول وكلهم أمل في إجبار الأتراك على قبول الهزيمة، ولكنهم لا قوا الهزيمة المرّة، وأجبرهم الأتراك على التقهقر والارتداد!

وفي تموز ١٩٢٣ م (١٣٤٢ هـ) عقد مؤتمر جديد للنسلم في مدينة

(١١٠) انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٦٤ - ٢٧١).

(١١١) أتاتورك (أبو الأتراك): ١٨٨٨ م (١٣٠٥ هـ) ولد بسالونيك اليونانية، كانت ميوله غربية، غير متمسك بالروح الاسلامية، ويقال أنه من يهود الدونمه الذين أظهروا الاسلام وأخفوا ديانتهم.. أسفر عن نيته ضد الاسلام حين تولى الحكم.. الغى الوقف الاسلامي، وكانت خطته ابعاد الهوية الاسلامية عن الشعب التركي وربطه بذيل الغرب.. أقفل التكايا وأمر رجال الدين ألا يرتدوا الزي الديني الرسمي، الغى التقويم الهجري.. وجعل العطلة يوم الأحد بدلاً من الجمعة.. أبدل الحرف العربي بالحرف اللاتيني.. ولقطع كل علاقة بالشرق جعل الأذان باللغة التركية.. وألغى الخلافة الاسلامية نهائياً من تركيا..

انظر: اليقظة الاسلامية في مواجهة الاستعمار /أنور الجندي/ دار بوسلامة، تونس ط ١٩٨٥، م (ص ١٢٤ - ١٢٦) وانظر: الحركة الاسلامية في تركيا/د. ابراهيم دسوقي شتا القاهرة ط ١ /الزهراء للاعلام العربي ١٩٨٦ م (ص ٢٩ - ٤٠). وانظر: موسوعة التاريخ الاسلامي /أحمد شلبي (م ٥، ص ٩١٥ و ١٣٤)

«لوزان»^(١١٢) السويسرية، وبموجبه انتهت حالة الحرب مع تركيا. وفي هذا المؤتمر تقرر مبدأ تبادل السكان بين تركيا واليونان تحت اشراف عصبة الأمم، كما جرى تبادل السكان مع بلغاريا بموجب اتفاق آخر، منفصل، انتهت في عام ١٩٢٧ م (١٣٤٢ هـ) عملية النزوح الكبير الذي كان بسبب الأحقاد الصليبية.

وبذلك جرت التصفيات الأساسية للمشكلات القومية البلقانية، وأتاح ذلك بعض الهدوء لبركان الصراع القومي، الذي مايزال بين بالأونة والأخرى يظهر هذا الصراع بأشكال مختلفة اليوم^(١١٣).

(.. ومع كل ما حصل كان للعثمانيين الفضل في أنهم غرسوا في أرض أوروبا شجرة إسلامية باسقة فرعائها: البانيا والبوسنة)



السلطان سليمان القانوني وقد سار خلفه خيرالدين بارباروسا قائد البحرية العثمانية وإلى جانبه قائد القوات البرية في أحد شوارع استانبول

(١١٢) لوزان Iousane مدينة سويسرية مركز سياحي فنادق عالمية، صناعة سيارات (١١٣) انظر: العثمانيون والبلقان (ص ٢٦٤ - ٢٧٢).